بسم الله الرحمن الرحيم

الزيدية : علامات وأفكار

(الخصائص الفكرية والمؤثرات الثقافية)

تأليف

السيد زيد بن علي الفضيل

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

الزيدية : علامات وأفكار

النشأة والتكوين :

تنسب الزيدية [a] إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين المتوفى بالعراق سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م ، ويعتقد الزيديون أن نسبتهم إلى الإمام زيد ما هي إلا نسبة اعتزاز وافتخار لا نسبة تقليد كلي كما هو الحال لدى المذاهب الأخرى ، ذلك أن الإمام زيد – من وجهة نظرهم - ليس أولى بالتقليد من غيره من أئمة آل البيت المعاصرين له ، ولا أنه أولى بالتقليد من الإمام القاسم بن إبراهيم المتوفى سنة ٢٤٦هـ/٨٥٩م، أو حفيده الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م ، أو غيرهم . كما وفي المقابل ، فإن الزيدية تُحرِّم التقليد على كل عالم مجتهد ، علاوة على أن هذه النسبة لم يطلقها الإمام زيد على نفسه ، ولا أطلقها أتباعه من بعده أيضا على أنفسهم ، بل أطلقها الحكام الأمويون

[a]- يقتصر الحديث حول أهم مبادئ زيدية اليمن المتفق عليها عند أغلبهم ، دون الرجوع إلى مبادئ الفرق الزيدية التي انتشرت في العراق وهي : الجارودية والبترية والصالحية ، كما لن يتم التطرق إلى أحوال زيدية طبرستان والجيل والديلم ، أنظر:الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ١٧٩ – ١٨٩؛ المحيميد ، علي ، دراسات في تاريخ المشرق الإسلامي (الرياض : مطبعة السفير،١٩٩٣م) ، ٢١ – ٣٠ .

على كل ثائر علوي عليهم من آل البيت ، ليصبح شعارا رسميا للفريق القائل بحتمية الخروج على الحاكم الظالم من وجهة نظرهم بعد ذلك [١].

وعليه فقد أطلقت كلمة الزيدية على العديد من أئمة آل البيت ، ومن تابعهم أو وافقهم في الاعتقاد :

- بعدل الله المطلق
- وتوحيد الله في ذاته وصفاته دون تجسيم أو تشبيه أو تعطيل
- وأفضلية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأولويته بالإمامة
- والقول بإمامة الإمام زيد بن علي
- واستحقاق الإمامة بالفضل والطلب لا بالوراثة أو القوة
- ووجوب الخروج على الحاكم الظالم في حال توفر الشروط اللازمة لذلك ، المقررة في كتبهم .
- والقول بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل منه [٢]

(١)ابن حمزة ، الإمام المنصور بالله عبد الله ، مجموع رسائل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، تحقيق : عبد السلام الوجيه (عمّان : مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، ٢٠٠٢م) ، ج٢، القسم الأول ، ٣٨٤؛ شرف الدين ، علي عبد الكريم الفضيل ، الزيدية نظرية وتطبيق (عمّان : جمعية عمال المطابع التعاونية ، ١٩٨٥م) ، ١١ – ١٣ . والحاكم الظالم في نظر الزيدية هو الذي يستبد برأي أو مال ، ويتعدَّى بظلمه وجوره إلى الرعية في أي حق من حقوقهم المشروعة ، ويشترط الزيدية للخروج عليه بعد استفراغ النصح له ، توفر خمسة شروط منها : وجود الجند الناصر المؤهل بالعدة والعتاد ، ووجود الحاكم البديل الذي تتوفر فيه الشروط اللازمة للإمامة وغير ذلك ، أنظر : شرف الدين ، الزيدية ، ص ٨٩ .

(٢)ابن المرتضى ، الإمام المهدي بالله أحمد بن يحيى ، البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، مراجعة : يحيى عبد الكريم شرف الدين (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٥م) ، ج١، ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ؛ ابن حمزة ، مجموع الرسائل ، ج٢، القسم الأول ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

أمّا ما عداها من الأمور فكلٌ وما أدّى إليه نظره ؛ ويمثل إجماع أئمة آل البيت بالنسبة للزيدية المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي ، من بعد الكتاب ، والصحيح من السنة النبوية [٣].

وتحتل مسألة الإمامة الجانب الأكبر في ثنايا الكتب والمؤلفات الزيدية ، حيث شكلت فارقا جوهريا بينهم وبين مختلف الفرق الشيعية والسنية على السواء .

ذلك أنها [أي الإمامة] - ومن بعد استحقاق الإمام علي وولديه الحسن والحسين رضوان الله عنهم بالنص الخفي المؤول من وجهة نظرهم - لم تنحصر في أحد بعينه ، كما لا يرتكز بناءها على الوراثة ، ولا تقوم بالوصية ، وإنما بالترشيح من قبل الشخص العارف من نفسه الأهلية والصلاحية عبر إصداره لمنشور الدعوة الذي يوضح فيه موجبات دعوته وصحة أهليته للقيام بأمر الإمامة ، ويبين من خلاله منهجه العملي ، وعند ذلك يجتمع رجال أهل الحل والعقد لمناقشته إن كان غير معروف لديهم ، ومن ثم يتشاورون فيما بينهم لبيان مدى استحقاقه لتولي الأمر ، فإذا ارتضوه بايعوه ، وإذا لم يرتضوه نظروا فيمن يصلح للخلافة والإمامة فيرشحوه لذلك [٤]. كما تقرر الزيدية عدم

(٣)ابن حمزة ، مجموع الرسائل ، ج٢، القسم الأول ، ٣٦١ .
(٤)شرف الدين ، الزيدية ، ١١٨ .

العصمة للإمام ، ومن أجل ذلك فهم يقررون عزله إن خان أو أصابه عجز .

وتشترط الزيدية في الإمام توفر عدد من الشروط وهي : علاوة على ما يقرره علماء السياسة الشرعية من :

١) الإسلام
٢) البلوغ
٣) العقل
٤) الذكورة
٥) الحرية
٦) سلامة الحواس والأطراف
٧) أن يكون مجتهداً مطلقا
٨) عدلاً
٩) سخياً
١٠) مدبراً
١١) مقداماً
١٢) لم يتقدّمه مجاب الدعوة (أي من يصلح للإمامة)

١٣) أن يكون علويا فاطميا ، وهو شرط أولوية لدى أغلبهم وليس شرط وجوب [٥]

وبالرغم من أن فقهاء السياسة الزيدية قد تطابقوا في رأيهم القاضي بشرط العلوية الفاطمية لتولي أمر وواجبات الإمامة مع فقهاء السياسة الشرعية في مذاهب أهل السنة قاطبة ، المشددين على وجوب تحقق شرط القرشية في النسب لصحة الخلافة الشرعية [٦] ، إلا أنهم لم يتشددوا في ذلك بصورة مطلقة ، حيث جعلها الفقهاء الزيديون شرط أولوية لا شرط وجوب ، فاتحين بذلك باب الاجتهاد في هذه المسألة ، ومؤكدين على رفض مبدأ التوارث في الحكم ، باعتبار أن تولي الإمامة لا يكون إلا بالفضل والاستحقاق ، وليس بالنسب والوراثة ، منطلقين في ذلك من معطيات مادية ومعنوية عديدة مبينة في مجمل كتبهم الشرعية[٧] .

وهو ما انعكس أخيرا في كثير من تجليات أفعالهم السياسية خلال حقبة العهد الجمهوري في اليمن ، التي أيد فيها العلماء الزيدون قاطبة

(٥)شرف الدين ، الزيدية ، ١١٦ ، ١١٧ ؛ المقالح ، عبد العزيز ، قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ، (بيروت : دار عودة ، ١٩٨٢م) ٤٩ .
(٦) أبي الحسن علي بن محمد الماوردي ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق : خالد العلمي (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ٣١ ، ٣٢ . وقد استند القائلون بذلك باحتجاج أبي بكر الصديق رضي الله عنه على الأنصار يوم السقيفة بروايته لقول النبي عليه الصلاة والسلام :"الأئمة من قريش" ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : "قدموا قريشا ولا تقدموها". أنظر لتخريج صحة رواية الحديثين : الماوردي ، المرجع السابق ، ٣٢ .
(٧) شرف الدين ، الزيدية ، مرجع سابق ، ١١٦ ، ١١٧ .

أمر تولي ولاية الأمة للكفء من أبناء اليمن ، الذي يتم ارتضاؤه بوسائل الاختيار الديمقراطي ، بغض النظر عن نسبه وانتماءه [٨]. ولم يكتفوا بتسويغ ذلك نظريا ، بل عمدوا إلى المشاركة الفاعلة في نظام الحكم الجديد ، وتولي العديد من الوظائف الشرعية والإدارية فيه .

وقد عد العلماء مجموعة من الأئمة باعتبارهم مؤسسين رئيسيين للمذهب الزيدي وهم :

§ الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المتوفى سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م
§ الإمام محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل (ت ١٤٥هـ)
§ الإمام الحسين الفخي بن علي بن الحسن المثلث (ت ١٦٩هـ)
§ الإمام يحيى بن عبد الله الكامل (ت ١٧٥هـ)
§ أخيه الإمام إدريس بن عبد الله (ت ١٧٥هـ)
§ الإمام محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج (ت ١٩٩هـ)
§ الإمام محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى المتوفى سنة ٢٠٠هـ
§ الإمام محمد الديباج بن جعفر الصادق (ت٢٢٥هـ)
§ الإمام إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق (ت بعد عام ٢٠٠هـ)

(٨) وضح ذلك في بيان العلماء المعلن والمنشور في ١٤١١/٤/٢٤هـ/١٩٩٠/١١/١٢م حول موضوع الإمامة ، الذي وقعه كل من العلامة السيد محمد بن محمد المنصور ، والعلامة السيد أحمد بن محمد الشامي ، والعلامة السيد حمود بن عباس المؤيد ، والسيد قاسم بن محمد الكبسي .

§ الإمام القاسم بن إبراهيم الرسّي المتوفى سنة ٢٤٦هـ
§ الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي المتوفى سنة ٢٩٨هـ
§ الإمام الناصر لدين الله الحسين الأطروش بن علي بن الحسن بن عمر الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت سنة ٣٠٤هـ) وهو المؤسس للمذهب والدولة الزيدية في خراسان (منطقة طبرستان والجيل والديلم) [٩].

ويعتبر الإمام يحيى بن الحسين ابن الإمام القاسم بن إبراهيم الرَّسِّي الملقب بالهادي إلى الحق ، الذي كانت قد تركزت في شخصيته زعامة آل البيت الفكرية والقيادية في الحجاز [١٠]، المؤسس لدولة الأئمة الزيدية باليمن ، حيث توجه إلى اليمن قادما من قرية "الدور"بمنطقة وادي الفُرْع في الجنوب الغربي من المدينة المنورة سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م[١١] ، بدعوة من بعض زعماء القبائل اليمنية ليقوم بحل المنازعات والحروب التي استشرت بينهم، وليكون عمودهم الديني والسياسي الذي يرتكزون عليه ، خاصةً وأنه قد انتشر في اليمن خلال

(٩)شرف الدين ، الزيدية ، ١٦ ؛ صبحي ، أحمد محمود ، الزيدية (الإسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٠م) ، ٧٤٣ ــ ٧٥٥ .

(١٠)العلوي ، علي بن محمد العباسي ، سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق : سهيل زكار (دمشق : دار الفكر ، ١٩٧٢م) ٣٥ ــ ٤٣ .

(١١) يعرف حاليا بفرع الردادي على بعد نحو ٧٥كم جنوب غرب المدينة المنورة بالقرب من جبل الفقرة ووادي حزرا ، وهو يختلف عن وادي الفرع الواقع على طريق الهجرة البعيد عن المدينة المنورة نحو ١٨٠كم باتجاه مكة المكرمة .

تلك الفترة أتباع المذهب الإسماعيلي بزعامة الدَّاعيين الحسن بن حوشب (منصور اليمن) وعلي بن الفضل الخَنْفَري ، اللذين تمكنا من بسط نفوذهما على معظم المناطق اليمنية ، وفشل الزعامات القبلية اليمنية من التصدي لذلك التوسع أيضاً ، وبخاصة مع احتدام النزاع فيما بينها حول مقاليد السلطة ، حيث استحوذ النزاع في الغرب من صنعاء بين الشَّرَاحِيين وبني زياد وغيرهم بهدف السيطرة على المناطق التهامية . وفي شمال صنعاء احتدم الصراع بين قبيلة بَكِيْل ، بزعامة الدَّعام بن إبراهيم ، وقبيلة حاشد بزعامة آل الضَّحاك . وفي منطقة صَعْدَة اشتد النزاع بين بني سَعد ، برئاسة آل أبي فَطِيمَة ، وقبيلة الرَّبيعة .

ولذلك كان أول عمل قام به الإمام الهادي هو توحيد الجبهة اليمنية ، بفض المنازعات بين القبائل ، آخذا في تقرير ملامح سياسته الشرعية التي جعلت من الأسس الإسلامية أساساً تستند عليه حسب ما ورد في خطبته حيث قال :

> **"أيها الناس ، أدعوكم إلى ما أمرني الله أن أدعوكم إليه ، إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فما جاء به الكتاب اتَّبعناه ، وما نهانا عنه اجتنبناه ، وإلى أن نأمر نحن وأنتم بالمعروف ونفعله ، وننهى نحن وأنتم عن المنكر جاهدين ونتركه"**

ثم اشترط على نفسه عدة شروط فقال :

> **" أيها الناس ، إني أشترط لكم أربعاً على نفسي :الحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، والأثرة لكم على نفسي فيما جعله الله بيني وبينكم ، أوَثركم فلا أتفضَّل عليكم ، وأُقدِّمَكم عند**

> **العطاء قبلي ، وأتقدَّم أمامكم عند لقاء عدوي وعدوكم بنفسي . وأشترط لنفسي عليكم اثنتين : النصيحة لله سبحانه وإليَّ في السِّر والعلانية ، والطاعة لأمري على كل حالاتكم ما أطعت الله ، فإن خالفت طاعة الله فلاطاعة لي عليكم ، وإن مِلت وعدلت عن كتاب الله وسنة رسوله ، فلا حُجَّة لي عليكم "** (١٢) .

بهذا تكونت دولة الأئمة في اليمن ، فأوجدت لها مكانة راسخة في نفوس كثير من اليمنيين ، وتتابع عديد من أئمتها آخذين على عاتقهم مهمة توحيد اليمن ، في ظل دولة سياسية تعيش حُرِّيَّة فكرية بما لا يتعارض مع الثوابت من الشريعة الإسلامية ، متخذين من مدينة صَعدَة عاصمة دينية وسياسية ، وجاعلين مدينة صنعاء عاصمة سياسية لهم متى سيطروا عليها ، ومن أبرز أولئك الأئمة الذين رسَّخوا قواعد الدولة ، وكانت لهم آثارهم البارزة في تشكيل الحياة السياسية والفكرية عبر مختلف الحقب التاريخية :

- § الإمام محمد المرتضى ابن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، وقد تنازل عن الإمامة لصالح أخيه أحمد الذي تلقب بالناصر لدين الله ، وتوفي سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م.
- § الإمام الناصر لدين الله أحمد ابن الإمام الهادي إلى الحق يحيى (دعوته ٣٠١هـ ، وفاته ٣٢٥هـ / ٩١٣ ــ ٩٣٦م) .
- § الإمام المنصور بالله يحيى ابن الإمام الناصر لدين الله أحمد (دعوته ٣٢٥هـ ، وفاته ٣٦٦هـ/٩٣٦ ــ ٩٧٦م)

---
(١٢)العلوي ، ص٤٨ .

§ الإمام الداعي إلى الله يوسف ابن الإمام المنصور بالله يحيى (دعوته ٣٦٨هـ ، وفاته ٤٠٣هـ/٩٧٨ – ١٠١٢م)

§ الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني (دعوته ٣٨٨هـ ، وفاته ٣٩٣هـ / ٩٩٨ – ١٠٠٢م)

§ الإمام أبو الفتح الديلمي• الناصر بن الحسين بن محمد (٤٣٠ – ٤٥٩هـ /١٠٣٨ – ١٠٦٦م) .

§ الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٥٣٢-٥٦٦هـ/١١٣٧-١١٧٠م) .

§ الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (٥٨٣-٦١٤هـ / ١١٨٧ - ١٢١٧م) .

§ الإمام الداعي إلى الله يحيى بن المحسن (٦١٤ – ٦٣٦هـ / ١٢١٧ – ١٢٣٨م).

§ الإمام المتوكل على الله المظلل بالغمام المطهر بن يحيى بن المرتضى (٦٧٦ – ٦٩٧هـ / ١٢٧٧ – ١٢٩٧م) .

§ الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسيني (٧٢٩ - ٧٤٩ هـ / ١٣٢٨ – ١٣٤٨م) .

§ الإمام الناصر للدين صلاح الدين محمد بن علي (٧٧٣ – ٧٩٣هـ / ١٣٧١ – ١٣٩٠م)

• - ينتمي بنسبه إلى الإمام زيد بن الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

§ الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المُرْتضى (٧٩٣ - ٨٤٠هـ / ١٣٩٠ - ١٤٣٦م)

§ الإمام المتوكل على الله المُطَهر بن محمد بن سليمان الحَمْزي (٨٤٠ - ٨٧٩هـ/١٤٣٦ –١٤٧٤م)

§ الإمام الهادي إلى الحق عز الدين بن الحسن بن علي المؤيد (٨٧٩ - ٩٠٠هـ/١٤٧٤ – ١٤٩٤م)

§ الإمام المنصور بالله محمد بن علي الوُشَلي السِّرَاجي (٩٠٠ – ٩١٢هـ/١٤٩٤ - ١٥٠٦م)

§ الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين بن شمس الدين (٩١٢-٩٦٥هـ/١٥٠٦-١٥٥٧م)

§ الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد (ت ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م) ومن بعده ولداه الإمام المؤيد بالله محمد (ت ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م) والإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤-١٠٨٧هـ/١٦٤٤-١٦٧٦م)

§ الإمام المتوكل على الله المحسن بن أحمد من ذرية الإمام المظلل بالغمام (١٢٧١ – ١٢٩٥هـ / ١٨٥٤ – ١٨٧٨م) .

§ الإمام الهادي شرف الدين بن محمد الحسيني (١٢٩٦-١٣٠٧هـ/١٨٧٨-١٨٨٩م) ، الذي تزامن معه الإمام المنصور بالله محمد بن عبد الله الوزير (١٢٧٠ – ١٣٠٧هـ / ١٨٥٣ – ١٨٨٩م)

§ ومن بعدهم الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى (١٣٠٧ – ١٣٢٢هـ/ ١٨٨٩ – ١٩٠٤م) .

§ وأخيرا الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين (١٣٢٢-١٣٦٧هـ/١٩٠٤-١٩٤٨م) ، الذي أسس المملكة المتوكلية اليمنية ، لتدخل اليمن مع عهده مرحلة جديدة من تاريخها السياسي ، تقوم عراها على فكرة الملكية الوراثية ، التي عمدت إلى تسويغ فكرة توارث السلطة ، وسعت إلى تعميد ذلك على أرض الواقع .

وهو ما رفضه عديد من علماء ومثقفي اليمن خلال تلك الفترة ، وسعوا إلى تصحيح طبيعة الوضع السياسي الذي فرض عليهم ، وفق أسلوب مؤسسي دستوري ، يتوافق مع مرتكزات البناء الرئيسي لنظام دولة الأئمة السياسي ، ويتناغم مع وتيرة العمل السياسي المؤسسي الحديث ، الذي وضحت آلياته في ثنايا بنود ميثاقه الوطني المقدس (الدستور).

إلا أن جهدهم السياسي ، وثورتهم العسكرية التي تم إعلانها سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م لم تكلل بالنجاح ، حيث تمكن ولي العهد الأمير أحمد ابن الإمام يحيى من القضاء عليها ، فسجن من سجن ، وأعدم من أعدم، وقد مكنه ذلك من أن يتولى حكم اليمن في الفترة ما بين سنتي (١٣٦٧ – ١٣٨٢هـ / ١٩٤٨ – ١٩٦٢م) ، وخلفه نجله ولي العهد الأمير محمد البدر بن أحمد بن يحيى حميد الدين ، الذي سقطت المملكة المتوكلية

اليمنية في عهده ، إثر أحداث السادس والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢م / ١٣٨٢هـ التي آذنت بقيام النظام الجمهوري في اليمن .

وكانت دولة الأئمة الزيدية في اليمن قد عاصرت عددا من الدول السُّنية المتعاقبة كالدولة الزِّيادية ، والنَّجاحية ، والصُّليحية ، والأيوبية ، والرَّسولية ، والطاهرية ، كما عاصرت من ثم مختلف القوى العثمانية في اليمن خلال العصر الحديث ، التي كان ابتداء مجيئها بشكل رسمي سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ، وذلك بعد استكمال سيطرتهم على منطقة بلاد الشام ومصر سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، وتبعية شريف مكة أبي نمي الثاني محمد بن بركات (٩١١-٩٩٢هـ/١٥٠٦-١٥٨٤م) للسلطان العثماني سليم الأول في نفس السنة .

خصائص المذهب الزيدي الفكرية :

مع استقرار الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين في مدينة صعدة ، واتخاذه إياها عاصمة سياسية له ، بدأت المدينة في التحول إلى مركز علمي يؤمها العلماء والشعراء ، فقامت بها حركة فكرية خصبة ، وثار فيها جدل فكري وسياسي ، وأصبحت منارة حضارية يُهاجر إليها من داخل اليمن وخارجه [١٣]، بغض النظر عن مدى حجم التوافق

(١٣) زيد ، علي محمد ، معتزلة اليمن : دولة الهادي وفكره ، ط١(صنعاء وبيروت : مركز الدراسات والبحوث اليمن ودار العودة ، ١٩٨١م) ١٣١ .

المذهبي والفكري مع السائد في المدينة ، وذلك لما اشتهر عنها من التزام بالشرع ، ورعاية للحرمات ، وموطن للعدل [١٤] .

وكان ممن هاجر إليها من صنعاء : العلامة أبو نصر الحنبصي ، وتلميذه العلامة أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، الذي تبلور تكوينه العلمي والوجداني والسياسي بها [١٥] ، علاوة على العلامة نشوان الحميري المتوفى سنة ٥٧٣هـ/١١٧٨م ، وغيرهم ممن تجذرت خلافاتهم الفكرية مع أئمة المذهب الزيدي في مسائل عديدة ، يأتي على رأسها موضوع الإمامة [١٦] ، علاوة على غيرهم من الأئمة الفحول وأقطاب العلماء والشعراء [١٧]. ثم ما لبثت هذه الحالة المشرقة أن أصبحت ديدن مختلف المدن الزيدية بوجه عام، التي شكلت معاقل حصينة للعلم والعلماء ، وأثمرت عن بروز كم غزير ونوعي من الإنتاج الفكري ، الذي لم يكن قاصرا على العلماء والشعراء من أفراد المجتمع

(١٤) الشجاع ، عبد الرحمن ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، (صنعاء : وزارة الثقافة والسياحة ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م) ٤٣ .

(١٥) زيد ، معتزلة اليمن ، ١٣٢ .

(١٦) زيد ، علي محمد ، تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري ، ط١ (صنعاء : المركز الفرنسي للدراسات اليمنية ، ١٩٩٧م) ١١١ – ١١٥ . وحول ذلك فقد قال الهمداني والحميري بعدم حصر الإمامة والخلافة في قريش ، وأنها صالحة في جميع المسلمين ، متوافقين في ذلك مع فرقة الخوارج .

(١٧) الشجاع ، الحياة العلمية ، ٤٣ .

وحسب ، بل شمل أيضا جُل أئمة دولة الأئمة الزيدية ، الذين تميزوا بغزارة المعرفة وقوة الحجة وفقا لما تعكسه مؤلفاتهم المعرفية [١٨].

وقد شكلت الزيدية نقطة التقاء بين فرق السنة والشيعة ، بما تمثله من آراء وأفكار عقدية ، واجتهادات وأقوال فقهية ، غلب عليها سمت الاعتدال جراء انفتاحها على مختلف المذاهب ، ومقتها للانغلاق والتعصب [١٩] .

فهي لم تغال في مظاهر تشيعها للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وآل البيت رضوان الله عليهم بصفة عامة ، مع إقرارها بفضلهم وأولويتهم ، كما لم تخض بالنقد الهادم والمسرف في أمر الخلافات الحاصلة على عهد الخلفاء الراشدين بشكل عام [٢٠] .

من جانب آخر ، فقد قالت الزيدية في المسائل العقدية بمقالة العدليين من علماء الكلام ، واتفقت بذلك مع العديد من المذاهب الإسلامية السنية والشيعية [٢١] ، كما أنها نهجت في بحثها الفقهي ،

(١٨) أنظر في ذلك : المقراني ، يحيى بن محمد ، مكنون السر في تحرير نحارير السر ، تحقيق : زيد الوزير ، ط١(د.م : مركز التراث والبحوث اليمني ، ٢٠٠٢م) ؛ الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، سبق ذكره ؛ حسين العمري ، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني ، (دمشق : دار المختار للطباعة والنشر ، ١٩٨٠م) ؛ عبد السلام الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيديين ، ط١(عمّان : مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، ١٩٩٩م) .

(١٩) صبحي ، أحمد محمود ، الزيدية ، (الإسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٠م) ٢٥٦ ؛ المقالح ، قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ، ٢١ .

(٢٠) المقالح ، قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ، ٢٠ .

(٢١) قسم العلماء المعرفة الدينة إلى أصول متعلقة بالفقه وأخرى متعلقة بمسائل العقيدة التي تبحث في قضايا الأسماء والصفات (التوحيد) ، والقضاء والقدر (العدل) ، والوعد والوعيد والثواب =

واستنباطها التشريعي ، مناهج مختلف الفرق الإسلامية من الاعتماد على روايات آل البيت المروية بطرقهم الخاصة من جهة ، وعلى روايات أصحاب المصنفات المشهورة في الحديث ، كالبخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، وغيرهم ، من جهة أخرى (٢٢).

وكان من جراء ذلك أن تباينت الآراء حول تحديد هوية المذهب الزيدي إجمالا ، ليصنفه البعض على أنه أقرب فرق الشيعة إلى السنة ، في حين رأى البعض الأخر أنه مذهب سني بملامح شيعية ، معللين ذلك بعدم وجود أي غضاضة عند علمائه في عرض دليل غيرهم دون النظر إلى مدى تطابقه مع اجتهادهم ، عوضا عن القبول به وموافقتهم إياه في آليات الاستنباط وإجراء الحكم ، **وهو ما جعلهم وفقا لذلك رواد لما يعرف بالفقه المقارن** منذ أبكر الفترات التاريخية (٢٣).

= والعقاب ، والإمامة ، وجعل بعضهم منها مثار فرقة وتباعد نتيجة لتعصبهم . أنظر : الشهرستاني ، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، تحقيق : أمير مهنا و علي فاعور ، ط٥ (بيروت : دار المعرفة ، ١٩٩٦م) جزأين ؛ عبد الجبار بن أحمد ، شرح الأصول الخمسة ، تعليق : الإمام أحمد بن أبي هاشم ، تحقيق : عبد الكريم عثمان (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٦٥م) ؛ ابن المرتضى ، البحر الزخار ، سبق ذكره ؛ صبحي ، الزيدية .

(٢٢) برنارد هيكل، علماء أهل الحديث عند زيدية اليمن، مجلة المسار، العدد الخامس(١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م) ص ٣٢

(٢٣) حول هذه المسألة يمكن النظر إلى موسوعات الفقه الزيدي ومنها : ابن المرتضى ، أحمد بن يحيى ، البحر الزخار ، سبق ذكره ؛ ورسائل العدل والتوحيد ، دراسة وتحقيق : محمد عمارة (القاهرة : دار الهلال ، ١٩٧١م) ، جزأين ، ويحتوي الكتاب على مجموعة رسائل للإمام الحسن البصري ، والإمام القاسم بن إبراهيم الرّسي ، والقاضي عبد الجبار بن أحمد ، والشريف المرتضى ، والإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين .

وبلغ التباين حدَّه ، حين اختلفت الآراء حول تحديد هوية بعض علمائه المذهبية ، إذ تم تصنيف السيد محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م ، والسيد حسن بن أحمد الجلال المتوفى سنة ١٠٨٤هـ/١٦٧٣م ، والقاضي صالح المقبلي المتوفى سنة ١١٠٨هـ/١٦٩٦م ، والسيد محمد بن إسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م ، والقاضي محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ، على أنهم من علماء مذاهب أهل السنة ، بسبب ميلهم للأخذ بمقالة أهل الحديث في الاستنباط الشرعي (٢٤) . وبلغ أوج هذا التباين عند بعض الباحثين ليجعل من السيد الوزير ، وابن الأمير، والقاضي الشوكاني ، روادا لمدرسة علمية جديدة لا تمت إلى الزيدية بصلة ، كما أنها غير تابعة لمنهج أهل السنة ، لكونهم قد كانوا "نوعا مختلفا من الرجال ، ونوعا مختلفا من العلماء ورجال الإصلاح الديني ، ليشكلوا ظواهر خاصة لم تكن قائمة في عصورهم"(٢٥) .

على أن الرأيين - في تصوري - لم يكونا دقيقين في تشخيص ملامح هويتهم العلمية وفقا لمقتضيات المنهج الزيدي الذي يفرض الاجتهاد ويمنع التقليد ، كما وبحسب رأي الدكتور صبحي "فإن إيثارهم

(٢٤) الأكوع ، إسماعيل ، أئمة العلم المجتهدون في اليمن ، ط١ (عمان : دار البشير ، ٢٠٠٢م) ؛ وانظر مقالته أيضا في كتابه الزيدية نشأتها ومعتقداتها ، ط٣ (دمشق : دار الفكر ، ١٩٩٧م) ٣٧ – ٥١ ؛

(٢٥) المقالح ، قراءة في فكر الزيدية ، ٥٤ .

الفقه والحديث على الكلام والجدل ، وميل بعضهم إلى مذهب أهل السلف ، لا يعني بحال ما تحولهم عن المذهب الزيدي إلى غيره أو إلى مذهب جديد ، وإنما تلك سمة التفتح في الزيدية على مر العصور سواء في الأصول أو الفرع" (٢٦)

وفيما يتعلق بمسائل الأصول فقد صنفت الزيدية بوصفها تابعا للمعتزلة حذو القذة بالقذة (٢٧) استنادا إلى تتلمذ الإمام زيد على يد واصل ابن عطاء ، وهو ما يصعب القبول به على علاته ، لكون الأخير كان ممن يجوز وقوع الإمام علي في الخطأ خلال حربه في موقعة الجمل وصفين على وجه الخصوص .

كما أن الخوارج والإمامية تتفق مع الزيدية في مجمل المسائل العقدية ، ولم يُذكر أن أحدا من علمائهم قد تتلمذ على يد واصل أو الإمام زيد نفسه ، الشيء الذي يدل على أن مرجعية مختلف تلك الفرق تعود إلى أصل فكري واحد وهو الإمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه بحسب رأي ابن أبي الحديد المعتزلي الذي قال :

> **"ما أقول في رجل إليه تعزى كل فضيلة ، وتنتهي إليه كل فرقة ، وتتجاذبه كل طائفة ، فهو رأس الفضائل وينبوعها ، كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ وبه اقتفى وعلى مثاله احتذى ... فالمعتزلة وكبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ،**

---

(٢٦) المقالح ، قراءة في فكر الزيدية ، ٧٠ . والنص مقتبس من رسالة الدكتور أحمد صبحي الجوابية على مقالة الدكتور المقالح المنشورة كاملة في كتابه الآنف . أنظر ، المقالح ، قراءة في فكر الزيدية ، ٦٤ – ٧٠ .

(٢٧) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج١ ، ١٨٩ .

> **وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذ علي وابنه ، وأما الأشعرية فإن أبا الحسن الأشعري تلميذ أبي علي الجبائي أحد شيوخ المعتزلة ، وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر"** (٢٨)

على أن الصلة الفكرية كانت وثيقة بين أئمة الزيدية وعلماء المعتزلة التي بلغت حد المناصرة والمبايعة ، حيث نادى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بإمامة محمد النفس الزكية (٢٩)، وتتلمذ عدد من أئمة الزيدية على بعض علمائهم لاحقا ، وتوجت تلك العلاقة بإرسال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة المتوفى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م دعاته إلى بغداد لاستنساخ كتب ومصنفات المعتزلة الفكرية ، لتصبح مكتبات اليمن – من حينه - مخزنا حافظا لتراث المعتزلة حتى الوقت الراهن (٣٠).

تجدر الإشارة إلى أن التواصل الثقافي بين أئمة آل البيت وغيرهم من أئمة العلم كان واضحا ومتجددا ، حيث حرص عديد من علماء وأئمة المذاهب السنية المختلفة على الانتهال من علومهم إجمالا، والتتلمذ على عدد من علمائهم الزيديين من أمثال : سفيان بن عيينة ، وسفيان

---

(٢٨) صبحي ، الزيدية ، ٣١ .

(٢٩) صبحي ، الزيدية ، ٢٥٩ .

(٣٠) صبحي ، الزيدية ، ٢٦٢ .

الثوري ، وصالح من حي ، وولده الحسن ، ومقاتل بن سليمان ، وغيرهم [٣١].

ومن ذلك أيضا ما كان من تتلمذ الإمام أبي حنيفة النعمان على أئمة آل البيت بشكل عام ، والإمام زيد بن علي بشكل خاص ، الذي كان قد أعلن مناصرته له حال خروجه على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م ، وشبه خروجه بخروج الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام يوم بدر[٣٢]، كما جاهر بانحيازه لآل البيت في خلافهم مع بني العباس ، مقررا أولويتهم بالحكم منهم ، صادعا برأيه في تأييد ثورة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، على أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م ، وباكيا مصائر العلويين في تلك الثورة وما بعدها ، وهو ما أثار النقمة عليه بعد ذلك [٣٣].

كما اعتمد منهجه العلمي في قبول الحديث على رأي أستاذه الإمام جعفر الصادق الذي لم يكتف بتحري الرواة وصدقهم ، بل اهتم بتحري معاني الأحاديث ، ورفض منها ما يخالف القرآن ، أو السنة المشهورة ،

(٣١) ذكرهم ابن النديم من علماء الزيدية ، أنظر : ابن النديم ، محمد ، الفهرست ، تحقيق : إبراهيم رمضان ، ط٢ (بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٩٩٧م) ، ٢٢١ ، ٢٢٢ .
(٣٢) الوزير ، إبراهيم ، زيد بن علي : جهاد حق دائم ، ط٢ (واشنطن : منشورات كتاب ، ١٩٩٩م) ١٤٢ – ١٤٨؛ الشرقاوي ، أئمة الفقه ، ٣٣ ، ٦٠ .
(٣٣) الشرقاوي ، أئمة الفقه ، ٦٣ ؛ ٦٤ .

أو مقصدا من مقاصد الشريعة ، وهو ما يتعارف عليه أئمة آل البيت بمنهج العرض [٣٤] .

وكذلك الحال مع الإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي مثل مذهبه بآلياته الفقهية ، حلقة وسطى بين مدرسة أهل الرأي القائلين بتقديم العقل على النقل ، ومدرسة أهل الحديث الناصين على أهمية تقديم النقل على العقل ، وتجلت وسطية علماء الشافعية في اليمن وغيره في اختيارهم الأخذ برأي الإمام أبي الحسن الأشعري الذي كان من أبرز تلاميذ الإمام أبي هاشم الجُبائي شيخ معتزلة البصرة [٣٥] .

وبالتالي فلم تنتف مرجعيتهم لأهل السنة ، كما ظلوا متوافقين في عديد من المسائل الرئيسة مع علماء المعتزلة [٣٦] ، مما انعكس إيجابا على طبيعة علاقتهم الفكرية والمذهبية مع علماء الزيدية إجمالا ، لاسيما وأن الإمام الشافعي كان قد اشتهر بميوله التشيعية للإمام علي وآل البيت ، المعلنة في مواضع شعرية ونثرية عديدة ، إلى الدرجة التي لم يبال فيها بأن يتهم بالرفض بحسب قوله في بعضها [٣٧] .

(٣٤)الشرقاوي ، ٦٤ .
(٣٥) سيد ، المرجع السابق ، ٧٤ .
(٣٦) المرجع السابق ، ٧٩ .
(٣٧) محمد أبو زهرة ، الشافعي : حياته وعصره – آراءه وفقهه ، ط٢ (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٤٨م) ، ١٣٩ – ١٤٢ ؛ وانظر : ديوان الإمام الشافعي ، تحقيق : يوسف البقاعي (بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٨م) ، ٧٨ ، ١٠١

وفي مقابل ذلك فلم يعمل الإمام الشافعي على إخفاء موقفه التاريخي والشرعي من البغاة الذين خرجوا على الإمام علي حال توليه الخلافة ، مبديا صواب قتال الإمام علي لهم وأن قتالهم كان واجبا شرعا بحسب رأيه [٣٨].

وعزز من هذا التقارب تتلمذ الإمام الشافعي على أيدي أئمة آل البيت وعلمائهم [٣٩]، وتعلمه منهم "أن العقل هو أقوى أدوات الاستنباط حين لا يكون نص ، وأنه هو وحده أداة فهم النصوص لا الإتباع والتقليد" [٤٠] ، وكان لذلك كله وغيره أكبر الأثر في بناء طبيعة العلاقة الإيجابية بين الزيدية والشافعية ، بحيث انعكس ذلك إيجابا على تلاميذ المدرستين ، حيث لم يتحرج أحد أبناء المدرسة الزيدية في طبرستان وهو الرضي بن المهدي من التتلمذ على يد العلامة محمد بن محمد الغزالي الشافعي الأشعري المعروف بأبي حامد (٤٥٠ – ٥٥٥هـ/١٠٥٨ – ١١٦٠م) ورواية كل مصنفاته [٤١] ، كما لم يتوان الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (٥٨٣ - ٦١٤هـ/١١٨٧ - ١٢١٧م) عن رواية مصنفات أبي حامد الغزالي أيضا [٤٢] .

(٣٨) الشرقاوي ، المرجع السابق ، ١٥٨ .
(٣٩) المرجع السابق ، ١٣١ ، ١٣٤ .
(٤٠) المرجع السابق ، ١٣٤ .
(٤١) يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الكبرى ، تحقيق : عبد السلام الوجيه ، (عمان : مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م) ، ج٢ ، ١٠٦٩ .
(٤٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ١٠٧٠ .

وكان من جراء ذلك أن حرص الأئمة الزيديون في اليمن على توثيق عرى الوشائج الفكرية مع العلماء الشافعية ، وعملوا على الحفاظ على شخصيتهم الفكرية والسياسية حال السيطرة على مناطق امتدادهم الجغرافي ، وهو ما لاحظه المعاون السياسي للمندوب السامي البريطاني في عدن الكولونيل هارلود جيكوب Gaikub حين زيارته لليمن سنة ١٣٣٨هـ/١٩١٩م بهدف لقاء الإمام يحيى حميد الدين بقوله :

> **"وكانت عادت الإمام دوما وما زالت هي تعيين الحكام على الأقاليم الشافعية من الأشخاص الشوافع تحاشيا من إحراج الأحاسيس الدينية والمشاعر المذهبية عند أبناء هذه الطائفة"** [٤٣]

ومارسه بعدئذ الإمام أحمد حميد الدين فعليا حال توليه إمارة لواء تعز خلال فترة حكمه لليمن ، حيث استقر بمدينة تعز قرابة ٢٥ سنة ، لم يؤذن فيها بـ"حي على خير العمل" وهو جزء من الأذان عند الزيدية إلا في مسجده الخاص ، في الوقت الذي احتفظت فيه المدينة بشخصيتها الاجتماعية والعلمية والمذهبية .

كما وفي المقابل فقد أخذ الصراع العثماني الإمامي في اليمن ، بعد ذلك ، طابعه السياسي البحت ، بحيث لم يتوان القادة العثمانيون الأحناف في توثيق علاقاتهم مع القوى الإسماعيلية الشيعية خلال تواجدهم في المرحلة الأولى ، وعملوا على الاستفادة منهم حال حربهم

(٤٣) هارولد جاكوب ، ملوك شبه الجزيرة العربية ، ترجمة : أحمد المضواحي ، ط٢ (بيروت : دار العودة ، ١٩٨٨م) ، ٢٦١

للدولة الطاهرية الشافعية ، ودولة الأئمة الزيدية ، وهو ما لم يستمر خلال تواجدهم في المرحلة الثانية ، حيث قاموا بمهاجمة تلك القوى نتيجة لقوتها ، وإمكانية تهديدها لمصالحهم .

وفي المقابل فلم تستبعد دولة الأئمة فكرة الانضواء تحت لواء الدولة العثمانية منذ اللحظة الأولى ، حيث حملت معظم رسائل الأئمة إلى الولاة العثمانيين عبارات الثناء والدعاء بالنصر والعزة للدولة على أعداء الله عز وجل والرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن ذلك ما أورده الإمام المنصور بالله محمد المتوفى سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م في معرض رده على رسالة مندوب السلطان عبد الحميد الثاني السيد محمد بن علي الحريري الرفاعي الحموي مفتي حماه بقوله :

".. نعم ، الأمر كما ذكرتم مما وقع بيننا وبين من تعلق بالسلطنة القاهرة أعز الله بها الإسلام ، وقمع بها ذوي الإلحاد الطغام " [٤٤]

وكذلك ما أورده الإمام يحيى من بعده في معرض رده على رسالة الشريف علي باشا حاكم الحجاز المرسلة سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٥م ، التي حث فيها على موالاة الدولة العثمانية ، حيث أوضح أن حرب الأئمة راجع إلى ما أوجبه الله عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جراء بعض أعمال الولاة الفاسدة مثل :

---

(٤٤) محمد محمد زبارة ، أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجرة (القاهرة : المطبعة السلفية ، ١٩٧٩م) ، ج١، ٢١٤ .

".. إرهاقهم للرعية ، واستخفافهم بسلطان الدين ، وولعهم بالجور ، ومجاهرتهم بالمنكرات .." [٤٥]

وهو ما أذكى نار المقاومة الأهلية والرسمية في اليمن بحيث لم يفتأ الأئمة عن التذكير بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أوجبها الله لضمان صلاح المجتمع والأمة [٤٦].

ولذلك فإنه وحال اتباع أحد الولاة لقواعد الشرع الحنيف فإن الأحوال السياسية والعسكرية تعود إلى حالتها الطبيعية من الهدوء والوئام ، ولعل فترة ولاية حسن باشا تحسين سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م خير دليل على ذلك ، حيث وكما يذكر المؤرخ عبد الله العزب في كتابه أن الأحوال قد اتسمت بالهدوء في عهده لكونه :

" كان على جانب عظيم من العقل والذكاء ، وحب الإصلاح ، فاستطاع بذلك أن يخمد النيران المشتعلة، واختلطت رجال الإمام برجال السلطة العثمانية ، واحترم كل فريق الآخر، وكانت أوامر الإمام تنفذ وتقرر في كل مكان من اليمن " [٤٧].

---

(٤٥) عبد الله محسن العزب ، تاريخ اليمن الحديث " فترة خروج العثمانيين الأخير"، تحقيق : عبد الله الحبشي ، ط١ (بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر ، ١٩٨٦م) ، ٢٦ .

٤٦- ركزت المصادر التاريخية اليمنية على هذا الجانب حين الحديث عن أوجه الصراع العثماني الإمامي في اليمن ، كما تبين عدد من الوثائق والرسائل التي تبادلها بعض الأئمة مع عدد من القيادات المحلية ، والزعامات القبلية ، أهمية وجوهر هذه المسألة خلال فترات الصراع ، أنظر : السيد مصطفى سالم ، وثائق يمنية : دراسة وثائقية تاريخية (القاهرة : المطبعة الفنية ، ١٩٨٢م) ، ٥١ وثيقة (٢) ، ١٣٣ وثيقة (١٤) ، ١٦٩ وثيقة (١٨) . زبارة ، أئمة اليمن ، ج١، ص ص ٢٠٩- ٢٢٧ .

(٤٧) العزب ، تاريخ اليمن ، ص ٥٦ .

وعلاوة على ذلك فقد أكد معظم الأئمة على أن قيامهم بأمر وواجبات الإمامة وحربهم للعثمانيين ما كان إلا نتيجة للممارسات القمعية ، والإجراءات التعسفية التي مارسها الجيش العثماني على الأهالي في اليمن ، علاوة على رغبة الولاة في السيطرة الانفرادية على مختلف المقدرات الاقتصادية ، والسياسية ، دون الاهتمام بمصالح ومعنويات الزعامات المحلية ، التي نظر إليها القادة والولاة بشيء من الدونية الاجتماعية ، الأمر الذي لم يرفضه اليمنيون فقط ، بل وشاركهم فيه كثير من الشعوب العربية والإسلامية .

وعلى ذلك فقد مثلت الزيدية بما تملكه من قدرة على مزج خاصية الفكر بالحراك السياسي عنصرا هاما من عناصر التجديد المستمر ، وتمكنت بما تختزله من قواعد جوهرية في تكوينها الفكري المؤمن بأهمية الانفتاح ، وضرورة احترام العقل ، والبعد عن التعصب [٤٨]، من تحقيق خاصية التعايش البناء مع مختلف المذاهب والفرق الإسلامية.

فكان إيمانهم الفكري بأن **" كلَّ مجتهد مصيب "** ، وأن **" تقليد الحي أولى من تقليد الميت "** وأن **" الإمام (أي إمام العلم) حاكم "**

(٤٨) المقالح ، قراءة في فكر الزيدية ، ٢٢ .

مصدرا خصبا لتفعيل جوانب البناء والحركة التجديدية ضمن إطار المجتمع اليمني بوجه عام [٤٩].

فقاعدة **" كل مجتهد مصيب "** تحمل في ثناياها هما فلسفيا يقضي بنسبية الحقيقة ، إذ ما يراه أحدهم مكتمل الصواب يمكن أن يكون غير ذلك لدى الطرف الآخر ، بحسب مدى واختلاف زاوية النظر ، وآلية التفكير التي ينطلق منها العالم الفقيه ، وبذلك فقد حرر أئمة المذهب عقولهم من داء الجمود العقيم ، وانطلقوا باحثين في آفاق العلم دون حرج أو إحساس بالتضارب النفسي الذي قد يعتري بعض الباحثين عند الوصول إلى نتائج وأحكام فقهية لا تتوافق مع النتائج والأحكام السالفة التي وصل إليه الرعيل الأول من أئمة المذهب .

كما أن قاعدة **" تقليد الحي أولى من تقليد الميت "** (وهي خاصة بالعامة) تحمل بين جوانبها روحا معاصرة تجديدية ، حيث حرصت الزيدية عبر هذه الآلية على تعميق فكرة أهمية الاجتهاد في حياة الأمة ، وتأكيد انتقاصها لكل عالم لا يضيف جديدا أو يجتهد في فكر [٥٠] ، وهي بذلك تعمل على تفعيل آلية الخروج من ربقة سيطرة الأحكام التراثية على واقع الحياة المعاصرة ، لتلامس باجتهادات علمائها جوهر الحياة ، ومتطلباتها ، ورغباتها التي تتغير بتغير الزمان والمكان ، مدركة عميق

(٤٩) لمعرفة المزيد حول قواعد المذهب الزيدي الكلية أنظر : شرف الدين ، علي ، الزيدية نظرية وتطبيق ؛ الأكوع ، الزيدية ، ٣٧ ؛ صبحي ، الزيدية .
(٥٠) المقالح ، قراءة في فكر الزيدية ، ٢٢ .

الفرق بين قدسية النص الديني العابر للزمان والمكان ، والوعي به ، الذي هو ابن لحيثيات واقع ذلك الزمان وذلك المكان ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا من خلال الفقيه المجتهد ، المعايش لمشاكل العصر، العارف بتغيرات الظرف ، المدرك لهوية المجتمع ، فيكون لاجتهاده الأثر المطلوب ، والغاية المنشودة ، في ظل الالتزام بالقواعد الشرعية .

وتؤسس قاعدة **" الإمام حاكم "** لمجتمع مدني يتمتع فيه الفرد بحريته العقائدية دون وصاية من أحد ، فيمارس عبادته وصلاته بالصورة التي يراها دون حرج أو إشكال ، أو تخوف من اعتراض أو رفض ، لاسيما وأن كتب الفقه الزيدي قد امتلأت بأقوال واجتهادات العلماء من المذاهب الأربعة وغيرهم ، وبالتالي فلم يعش الفقيه الزيدي بمنأى عن معرفة الرأي الأخر وحجته ، الأمر الذي حتم عليه التعامل مع الموروث الفقهي ، والسلوك العبادي للطوائف الأخرى بكل احترام وتقدير ، وهو ما تجسد في معظم الفترات التي انضوى فيها اليمن الشافعي تحت حكم دولة الأئمة ، ولا يخرج عن ذلك في اليمن إلا ما كان من توتر العلاقة مع الطائفة الإسماعيلية التي يجب أن تدرس ضمن سياقها التاريخي وظرفها الزمني .

وفي السياق ذاته فقد آمنت الزيدية بحرية إرادة الإنسان في جميع أعماله وأفعاله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، منافين ما حاولت

السلطة الجبرية إذاعته بين الناس ، بهدف التأكيد على أن وصولها إلى الحكم كان "بقضاء الله وقدره ، نافذ فعله ، ولا حيلة للناس في دفعه"[٥١]

وهو ما يعزز من روح الحرية الفكرية التي ترفض إشاعة ثقافة المقدس في أذهان المجتمع بشكل مطلق ، على اعتبار أن ذلك من أبجديات الحكومات الظالمة التي تعمل على تسويغ مبرراتها الشرعية بحسب وجهة نظر فقهاء السياسة الزيديين [٥٢] .

ولهذا كان تقريرهم بأن لا قداسة لأحد على أحد ، ولا لمفهوم على مفهوم ، حتى لو كان صاحبه من آل البيت ، ولا أحقية لأسرة على غيرها ، فلا توارث للمرجعيات الدينية والسياسية ، ومن هنا يكمن جوهر فعل التغيير الدائم في قائمة الأسر الهاشمية المتوالية على منصب الإمامة الزيدية ، ويكمن جوهر فعل التجديد الثقافي الكائن ضمن الدائرة الزيدية ، ولم يخرج اليمن الزيدي عن هذه الحالة إلا في عهد تملك أئمة التغلب في القرون الأخيرة من عمر الدولة .

وتأكيدا لذلك فقد أنكرت الزيدية مسألة العصمة القطعية التي تفيد المنع لأئمتها من الخطأ ، والعلم اللدني لأي إنسان كائنا من كان ، مخالفين بذلك الشيعة الإمامية (اثني عشرية وإسماعيلية) الذين كرسوا مفهوم القداسة لأئمتهم المعصومين ، الملهمين من الله في أذهان أتباعهم

(٥١) صبحي ، الزيدية ، ٧٣ ، ٧٤ .
(٥٢) صبحي ، الزيدية ، ٢٠٠ .

، ومعارضين كذلك لبعض مظاهر التصوف السني الذين حصروا تلك القداسة في الولي العارف بالله .

جاعلين العصمة المعنوية التي هي بمعنى اللطف وليس المنع من وجهة نظرهم ، قاصرة على الخمسة أهل الكساء وهم : النبي عليه الصلاة والسلام وفاطمة وعلي والحسن والحسين رضوان الله عليهم طبقا لخصوصية قوله تعالى :{إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا}(٥٣) .

مؤمنين في الإطار ذاته بحتمية اكتساب المعرفة بوجه عام ، مما انعكس إيجابا على طبيعة سلوكهم الفكري ، الذي لم يتبلور في ردهات مغلقة ، ولم يكن حبيس منهج محدد ، وأطر ثابتة .

ولم يعترف الفقهاء الزيديون في نفس السياق بمبدأ التـَّقية ، التي هي في حقيقتها : إظهار المرء لخلاف ما يبطن ، خوفا من البطش تارة، ورفضا لفتح باب النقاش في المسائل المختلف عليها تارة أخرى (٥٤). مما ميزهم عن غيرهم بالجرأة وعدم الخشية ، فكان أن صدع أئمتهم آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر في أعلى درجاتها وهي الإمامة ،

(٥٣) سورة الأحزاب : أية ٣٣ ؛ وحول تخصيص الخمسة في هذه الآية بالتطهير فقد ورد على لسان أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ، أنها قالت : خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم غداةً وعليه مرطٌ مرحل من شعر أسود ، فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (صحيح مسلم ، ج٨، جزء١٥، ص ١٩٤) .

(٥٤) صبحي ، الزيدية ، ٧٥ ، ٧٦ .

منطلقين من مشروعية الفكرة القاضية بأن فساد الحكم فساد للرعية (٥٥)، وناقش – وفقا لذلك - العلماء الزيديون آراؤهم الفقهية والفكرية جهرا ، دون أن يكون لتراكم التراث أي تأثير جوهري على اجتهاداتهم المعرفية التي قد تخالف اجتهادات من سلفهم من الأئمة والعلماء .

ويمكن استجلاء ذلك من جوهر إجابة السيد محمد بن إبراهيم الوزير على العالم المكي ابن ظهيرة الذي اقترح عليه تقليد أحد أئمة المذاهب الأربعة ، حين أبان خاصية المذهب الزيدي في هذا الجانب في محضر قوله **:" لو كان يجوز لي التقليد لم أعدل عن تقليد الإمام القاسم بن إبراهيم أو حفيده الهادي"** (٥٦).

ويتحقق برهان ذلك أيضا في جواب السادة العلماء في هجرة حُوث الزيدية على رسالة القضاة بني العنسي أهل برط ، التي شنعوا فيها على السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير لاستخفافه بمذهب أهل البيت ، وتضليل من كان مقلدا لهم ، إلى غير ذلك من الأقوال التي جعلوها حجة عند الله على سادة هجرة حوث (٥٧) ، حيث تضمن رد سادة حوث توضيح منهج السيد محمد بن إسماعيل الأمير العلمي القائم على إعمال الاجتهاد بعد امتلاك آلياته ، رغما عن اختلافهم معه في

(٥٥) صبحي ، الزيدية ، ١٠٠ .

(٥٦) الأكوع ، أئمة العلم المجتهدين ، ٢٢ .

(٥٧) الأكوع ، إسماعيل ، الزيدية نشأتها ومعتقداتها ، ط٣ (دمشق : دار الفكر ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) ٤١ ، ٤٢ .

عديد من الاجتهادات الفقهية ، منطلقين في ذلك من إيمانهم بقاعدة " كل مجتهد مصيب " و" أن الإمام حاكم " في قوله واجتهاده ، ومما جاء في رسالتهم :

".. فإنه والله صحيح العقيدة ، سليم الطوية ، من أهل الحل والعقد ، متبع لأكمل الشرع وهو كتاب الله العزيز وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه عرفهما حق معرفتهما ، وعظم من شأنهما وأظهر أمرهما ، واجتهد فيهما ، وفي سائر علوم أهل البيت عليهم السلام وغيرهم من الأصول والفروع العربية ، وصار غاية أهل زمانه مجتهدا عارفا محققا مدققا مستنبطا للأحكام الشرعية من الكتاب والسنة النبوية ، وعرف حقيقة الإجماع والقياس ، عاملا بما أدى إليه نظره الثاقب ... ومن القاعدة الفروعية أن من تحصلت فيه هذه الشروط أنه يحرم عليه التقليد لأحد من أهل البيت عليهم السلام وغيرهم " [٥٨]

ثم أخذوا في المدافعة عن اجتهاداته الفقهية المتعلقة بمسألة الرفع والضم والتأمين وتوضيح حججه فيها *، مبينين أنه لا يجوز الاعتراض على أحد في ما أدى إليه اجتهاده لأي مسألة خلافية ، لكون ذلك يعارض مقتضيات الاعتراف بحق الاجتهاد ، وهو ما أوضحوه في رسالتهم بقولهم :

"ففي حق العالم المجتهد الذي بذل وسعه في النظر في الأدلة ، واستنباط الأحكام الشرعية منها ، أحق بأن لا يخطأ ولا يعترض لما

(٥٨) الأكوع ، الزيدية ، ٤٣ .

* - لا ترى الزيدية ذكر لفظة (آمين) بعد الانتهاء من قراءة الفاتحة في الصلاة جهرا أو سرا ، كما تقول بصحة إسبال اليدين على ضمهما في الصلاة ، وتتوقف في مسألة صحة رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام فقط ، وفي ذلك يتفق ويختلف معها عديد من المذاهب الفقهية الأخرى . أنظر : ابن المرتضى ، البحر لزخار ، ج٢ ، كتاب الصلاة .

أسلفنا من أنه يحرم عليه التقليد ، ويجب عليه العمل بما أدى إليه نظره" [٥٩] .

وقد كان لذلك النهج أثره الإيجابي على مسيرتهم الفقهية والفكرية التي اتسمت بالاعتدال نتيجة لانفتاحهم على سائر المذاهب والآراء [٦٠]، وتميز خطهم التاريخي بالروية والعقل ، ليبرز منهم العديد من المتكلمين النوابغ من أمثال الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسيني (٦٦٩ – ٧٤٩هـ/١٢٧٠ – ١٣٤٨م) الذي قدم بحسب قول الدكتور صبحي : "منهجا للتحليل أكثر ثراء مما قدم سقراط ، ونسقا أكثر موضوعية من أصحاب التحليل المعاصرين"[٦١] ، مما جعلهم "واحدا من أهم التيارات العلمية والعملية في الفكر الإسلامي" إلى الدرجة التي "لا يمكن فهم السياق الفكري العام للإسلام ما لم توضع الزيدية في مكانها الصحيح من مناهج البحث الإسلامي الحديث" بحسب رأي الدكتور المقالح [٦٢].

ويتجسد فحوى الإيجاب والاعتدال أيضا عند العلماء الزيدين في خاصية حفظهم لتراث خصومهم ، ممن أعلن مخالفة نهجهم السياسي ، ولو صاحب ذلك التراث قذعا لشخوص أئمة الزيدية وعلمائها ، إيمانا منهم بأهمية الأمانة في النقل ، وحرية التعبير .

(٥٩) الأكوع ، الزيدية ، ٤٤ .

(٦٠) صبحي ، الزيدية ، ٢٥٦ .

(٦١) صبحي ، الزيدية ، ٤٠٦ .

(٦٢) المقالح ، قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ١٨ .

ولذلك فقد كان لهم الفضل في حفظ تراث العلامة الحسن الهمداني ونشوان الحميري ، اللذين دعيا إلى توسيع دائرة الإمامة لتشمل جميع الناس ، وهاجما القائلين بحصرها في قريش عامة وآل البيت منهم بخاصة ، ومن ذلك ما ورد شعرا على لسان نشوان بقوله [٦٣]:

إن أولى الناس بالأمر الذي هو أتقى الناس والمؤتمن
كائنا من كان لا يجهل ما ورد الفرض به والسنن
أبيض الجلدة أو أسودها أنفه مخرومة والأذن
أيها الشيعة هيا فلقد طال ما استولى عليك الوسن

وقوله :

حصَر الإمامة في قريش معشر هم باليهود أحق بالإلحاق
جهلا كما حصَر اليهود ضلالة أمر النبوة في بني إسحاق

وقوله أيضا :

حصر الإمامة ظالم في ظالم وكلاهما في مثله محصور
حصر الهدى والخير في بعض الـ ـورى والخير ما عن أمره مقصور

وكذلك الحال مع القاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني الذي هاجم اجتهادات أحد أبرز أئمة المذهب وهو الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى المتوفى سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م في كتابه السيل الجرار ، ومع ذلك فقد تبوأ عددا من المناصب الرسمية العالية في

(٦٣) زيد ، تيارات معتزلة اليمن ،١١٣ ، ١١٤ .

الدولة، والأمر أيضا مع السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير ، والسيد العلامة الحسن الجلال ، والقاضي العلامة صالح المقبلي وغيرهم ، الذين تمتعوا بصيت علمي فائق .

كما لم تعمد الدولة حال انتشار الطباعة إلى إقصاء نتاجهم المعرفي ، بل قامت بطباعة كتاب "نيل الأوطار" و"الدرر المضيئة" و"البدر الطالع" للشوكاني ، وكتاب "العلم الشامخ" للمقبلي ، وكتاب "ضوء النهار" للجلال ، وكتاب "سبل السلام" لابن الأمير [٦٤] .

وفي الإطار نفسه ، فقد حافظت المنظومة الفكرية لدولة الأئمة على الكتب التاريخية التي ناصرت الدولة العثمانية في حربها ضد دولة الأئمة ، مثل تاريخ العيدروس الموسوم بـ"النور السافر في أخبار القرن العاشر" ، وتاريخ الموزعي الموسوم بـ"الإحسان في دخول اليمن تحت راية آل عثمان" ، وغيرها [٦٥] .

وفي جانب آخر ، فقد حرصت دولة الأئمة بشكل عام على تأكيد مسألة الانفتاح الجاد على بقية الأفكار [٦٦]، وتفعيل عجلة التلاقي المعرفي ، والحوار الثقافي البناء مع مختلف التيارات الفكرية والمذهبية عبر تبني ثقافة ما يتعارف عليه حاليا بـ"المثاقفة" ، رغبة في إيجاد التغيير والتطوير الثقافي المطلوب بين مختلف الجماعات البشرية ،

(٦٤) البردوني ، الثقافة والثورة ، ١١٤ .
(٦٥) البردوني ، الثقافة والثورة ، ٤٤٣ .
(٦٦) المقالح ، قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ، ١٨ .

الناتج عن حميمية التواصل والتفاعل بين بعضهم البعض ، مما يؤدي إلى تنمية كياناتهم الثقافية بشكل خلاق ، لينعكس ذلك إيجابا على روح الثقة والتسامح بين الأفراد والجماعات ، حيث تزول كثير من الأوهام ، وتخف حدة التوتر وسلبيات العداوة البينية ، التي عادة ما يغذيها الجهل بالآخر ، والإيمان بما تكون في الذهنية من أحكام سلبية مسبقة عنه .

ويتجلى ذلك في عديد من الأعمال الفكرية التي حرص أئمة الدولة الزيدية على تنفيذها ، ومن ذلك ما كلف به الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين المتوفى سنة ٩٦٥هـ/١٥٥٧م العلامة الزيدي القاضي محمد بن يحيى بهران بالموائمة بين تفسير الكشاف لجار الله محمود الزمخشري ، المعتمد لدى مختلف الفرق العدلية ، وتفسير ابن كثير الذائع الصيت لدى علماء مدرسة أهل السنة ، "وكان الاحتفال بالانتهاء منه سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م بحضور الإمام والعلماء في حفل بهيج ، ضربت فيه الطبول ، واصطفت فيه الجنود ، وقرئت فيه خطبة الكتاب وجزء منه" (٦٧) .

ناهيك عن حرص عديد من الأئمة والعلماء على تطعيم كتبهم بمختلف الأقوال والآراء الفكرية ، ومجانسة مكتباتهم بعديد من المؤلفات المتباينة في التوجه والطرح والأسلوب ، كما هو الحال مع مكتبة الجامع

---

(٦٧) شرف الدين ، محمد بن إبراهيم ، السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية ، تحقيق : زيد علي الفضيل ، رسالة ماجستير ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، (١٤١٨هـ) ، غير منشورة ، أحداث سنة ٩٤٥هـ .

الكبير بصنعاء التي حوت مجموعة مؤلفات د. طه حسين وبخاصة كتابه المثير للجدل "الشعر الجاهلي" ، ومؤلفات الأستاذ عباس العقاد وبخاصة "عبقرياته" ، وبعض مؤلفات الشيخ محمد رشيد رضا ، وأغلب مؤلفات جبران خليل جبران الأدبية على الرغم من مسيحيته ، وبعض مؤلفات د. زكي مبارك وبخاصة كتابه الجدلي "النثر الفني" ، وغيرها (٦٨) .

لكن وعلى الرغم من بروز تلك المعالم المشرقة في التراث الفكري والعملي الزيدي ، إلا أن عددا من الكتاب المعاصرين قد أثر إعمال التشويه لأغراض سياسية بحتة ، حيث عملوا على تسويغ فكرة ربط معالم التخلف الواضحة نتائجها حاليا في اليمن ، بموضوع الإمامة التاريخي ، المربوط في ذهنهم بالمذهب الزيدي ، وهو ما يتضح صراحة في ثنايا كتابة أحدهم ، حيث يقول :

> **"إن الجهل الذي كان سائدا بين القبائل (بحسب رأيه) وهم السواد الأعظم في اليمن ، هو من صنع الحكم الإمامي ، وقد وضع وفق خطة مدروسة ليبقى الشعب جاهلا فلا يعرف شيئا في الوجود غير حكم الأئمة ووجوب طاعتهم دينا وعقيدة ... فلهذا فقد حرص الأئمة على احتكار العلم في أسرهم وفي من يليهم ، ثم في من يليهم من الأسر العلوية ، لتكون المناصب العليا في الدولة حكرا عليهم وحدهم"** (٦٩) .

---

(٦٨) البردوني ، الثقافة والثورة ، ٤٤١ .
(٦٩) الأكوع ، هجر العلم ، مرجع سابق ، ج٣ ، ١٦٦٨ – ١٦٦٩ .

ولاشك فإن في حديثه كل المغالطة والتشويه ، حيث بالنظر إلى كتب الفهارس العلمية (الببلوقرافيا) ، وإلى فهارس أسماء العلماء في عدد من الكتب المنشورة ، يتضح مدى بُعد مثل تلك المقولات عن مطابقتها للواقع الذي أراد تقريره ، لكون معظم علماء اليمن الزيدي والشافعي من أبناء الشرائح الاجتماعية المتنوعة ، وبخاصة من شريحة طبقة القضاة ، الذين شكلوا في الجانبين ، لبنة الحياة العلمية الرئيسيين ، حيث قد بلغ تعداد العلماء مثلا من طبقة القضاة أو الفقهاء المنحدرين من أصول قبلية في وادي السر باليمن مثلا ، وفي القرن العاشر فقط ، ما يزيد على (١٩٥) عالما مجتهدا وطالب علم ، مقابل (٧٥) عالما من أهل البيت (السادة) [٧٠]. ولم يقتصر ذلك على مراحل متقدمة من الحقب التاريخية ، بل امتد ليشمل عهد الكاتب نفسه ، الذي يعد نتاجا أساسيا لعهد الأئمة ، الذين استهدفهم بمقالته ؛ كما مثلت أسرته وغيرها من الأسر المنتمية لطبقة القضاة الاجتماعية في اليمن ، وطوال فترات عهود دولة الأئمة وصولا إلى حكم المملكة المتوكلية اليمنية ، مثلت الركيزة الأساسية في حكم اليمن وإدارة مؤسساته الشرعية والتنفيذية ، بحسب ما تثبته القرائن التاريخية العديدة الثابتة .

(٧٠)أنظر في ذلك : يحيى محمد المقراني ، مكنون السر في تحرير نحارير السر ، تحقيق : زيد الوزير ، ط١(د.م : مركز التراث والبحوث اليمني ، ٢٠٠٢م) ؛ الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، سبق ذكره ؛ حسين العمري ، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني ، (دمشق : دار المختار للطباعة والنشر ، ١٩٨٠م) ؛ عبد السلام الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيديين ، ط١(عمّان : مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، ١٩٩٩م) .

وفي السياق ذاته ، فقد تشكلت البعثات العلمية خلال عهد المملكة المتوكلية اليمنية ، المرسلة إلى بلدان مصر والعراق ولبنان من عدد غير قليل من الفئات الاجتماعية المتنوعة والشرائح المختلفة ، حيث تألفت البعثة العسكرية الأولى إلى العراق سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م من عدد غير قليل من الفئات الاجتماعية الغير هاشمية كالقضاة والقبائل وغيرها [٧١] ، وكان أبرز ضباط الدفعة العسكرية الأولى والثانية التي تخرجت في اليمن تباعا سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م وسنة١٣٦١هـ/١٩٤٤م كانوا من الفئات الغير هاشمية إجمالا [٧٢] . والأمر كذلك في المجال الشرعي والأدبي وفقا لدلائل الأسماء وانتماءاتها الاجتماعية .

كما وفي المقابل فقد تجلى هذا التوافق بين مختلف الأطياف الزيدية وغيرها ، وبين أطياف وشرائح المجتمع المختلفة ، في طبيعة التركيبة السياسية خلال عهد المملكة المتوكلية اليمنية ، حيث تشكلت موازين القوة للطبقة الحاكمة من بعض شريحة الهاشميين ممثلة بالإمام يحيى حميد الدين وباقي أفراد أسرته ، بالتحالف مع بعض شريحة القضاة ممثلة بطبقة الوزراء والمستشارين ، الذين يقومون بتسيير دفة الحكم الاستشاري والتشريعي في البلاد ، كما هو ملاحظ في دور عدد من القضاة الذين كان على رأسهم القاضي عبد الله العمري ، والقاضي

(٧١) عبد الله السلال وحسين عنبة وأخرون ، ثورة اليمن الدستورية ، ط٢ ، (صنعاء : مركز الدراسات والبحوث اليمني ودار الكلمة ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م) ٤٣ ، ٤٤ .

(٧٢) السلال وأخرون ، ثورة اليمن الدستورية ، المرجع السابق ، ٤٩ ، ٥٠ .

عبد الكريم مطهر ، وآخرين [٧٣]، يدعمهم جميعا بعض من شريحة القبائل المشكلين لب القوة التنفيذية العسكرية لنظام الحكم [٧٤] .

الدور الثقافي لدولة الأئمة باليمن في العصر الحديث :

لقد تعددت ملامح النهضة الثقافية في اليمن ، وتنوعت أطيافها طوال مختلف الفترات التاريخية ، فتعددت مدن إشعاعها المعرفي بشكل عام ، كزبيد وبيت الفقيه وغيرها في تهامة ، وتعز وإب وغيرها في المناطق الوسطى ، وذمار وصنعاء وحجة وصعدة وغيرها في المناطق الشمالية ، الأمر الذي جعلها مقصدا لطلاب العلم من جهة ، وموئلا لكثير من الحركات العلمية والتيارات الفكرية من جهة أخرى .

وخلال عهد دولة الأئمة ، نشطت الحركة الثقافية بوجه عام ، فكثرت التأليف ، وتعددت المدارس وحلقات العلم ، وتنوعت الأفكار والعلوم ، وبرز الكثير من العلماء المجتهدين في ظل ما كفله (بحسب رأي القاضي إسماعيل الأكوع) المذهب الزيدي من حرية التفكير ،

(٧٣) الشماحي ، مرجع سابق ، ١٨٩ . وفي هذا الإطار يذكر الدكتور حسين العمري أن القاضي محمد بن علي الشوكاني قد لعب دورا هاما في مجال القضاء وفي الحياة السياسية والفكرية طوال حكم الإمام المنصور بالله علي ، وحكم ولده الإمام المتوكل على الله أحمد ، وحكم حفيده الإمام المهدي لدين الله عبد الله ، أنظر : حسين العمري ، تاريخ اليمن الحديث والمعاصر(٩٢٢ – ١٣٣٦هـ/١٥١٦ – ١٩١٨م) ، ط٢ (دمشق : دار الفكر ، ٢٠٠١م) ١٢٨ ، ١٢٩ ؛ وانظر حول مسيرة القاضي الشوكاني الفكرية والسياسية : عبد العزيز المسعودي ، الحياة السياسية والفكرية في العالم العربي (٩٢٢ – ١٣٣٧هـ/١٥١٦ – ١٩١٨م) ، (صنعاء : دار الأفاق ، ٢٠٠٢م) ، ٤٣٥ – ٤٤٤ ؛ صلاح رمضان محمود ، ذكريات الشوكاني : رسائل المؤرخ اليمني محمد بن علي الشوكاني ، (بيروت : دار العودة ، ١٩٨٣م) .

(٧٤) الشماحي ، المرجع السابق ، ١٨٩ ، ١٩١ .

وعدم التقيد بأقوال ونصوص المذهب ، مما "أطلق للعلماء العنان ، وترك لهم الخيار ، بعد أن جعل باب الاجتهاد مفتوحا لمن حذق علومه ، واستوفى شروطه" [٧٥].

وتبعا لذلك فقد ازدهرت الجوانب المادية المصاحبة لنمو الحركة العلمية ، كالوراقة ، والنسخ ، علاوة على تعدد المصادر المالية من نفقات رسمية ، وهبات أهلية ، عوضا عن الأوقاف الخيرية الخاصة التي تمثل النواة الرئيسة لما يعرف حاليا بمؤسسات المجتمع المدني .

جدير بالذكر ، فقد شكلت الثقافة بكل أنساقها المتعددة الركيزة الأساسية في تكوين وبنية الفكر الإمامي ، إذ لا بد لمن يرغب في تولي أمر وواجبات الإمامة بحسب النظرية الزيدية أن يكون في درجة المجتهد المطلق العارف بمختلف العلوم النقلية والعقلية ، الأمر الذي شكل الخلفية الذهنية بداية للحالة الثقافية في اليمن ، وأثرى الساحة العلمية بالعديد من الأئمة العلماء المصنفين ، الذين ساهموا في تكوين وتطوير المنحى الثقافي على وجه الخصوص [٧٦] .

(٧٥)إسماعيل الأكوع ، أئمة العلم المجتهدون في اليمن ، ط١(عمّان : دار البشير ، ٢٠٠٢م) ١٠ .

(٧٦) للرجوع إلى تاريخ دولة الأئمة السياسي يمكن الرجوع إلى العديد من المصادر والسير الذاتية التي حقق بعض منها ، والعديد من المراجع ، ومن ذلك : يحيى بن الحسين ، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق : سعيد عاشور ، مراجعة محمد زيادة (القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٨م) جزأين ؛ وحول مختلف الإسهامات الفكرية للأئمة الزيدية وغيرهم من حكام اليمن ، يمكن الرجوع إلى : عبد الله الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن (بيروت : المكتبة العصرية ، ١٩٨٨م) ،؛ وحول ثورة الدستور يمكن الرجوع إلى : أحمد محمد الشامي ، رياح التغيير في اليمن (جدة : المطبعة العربية ، ١٩٨٤م) .

مرتكزات وآليات الثقافة اليمنية :

ولم تختلف مرتكزات الحركة الثقافية في اليمن خلال مختلف المراحل عن مثيلاتها في العالم الإسلامي ، حيث كان الطابع الشرعي وما يتعلق به من مباحث لغوية ، وكلامية ، وكذلك الطابع الأدبي المتمثل في الشعر والمقامة ، هو الغالب بل والمُشكّل لهوية الثقافة في اليمن .

أما فيما يتعلق بآلية التعليم فلم تختلف اليمن عن مثيلاتها من البلدان الإسلامية التي كان للكـُتاب ، والمسجد وما استحدث من مدارس علمية مرافقة له ، دورا مهما في تفعيل الحركة المعرفية بشكل عام ، وعليه فقد انتشرت معالم تلك المعرفة في مختلف المدن اليمنية ، بل إن بعضها قد تميز بطابعها العلمي كمدينة زبيد في تهامة ، وتعز في المناطق الوسطى ، وذمار ، وصنعاء ، وصعدة ، وغيرها في المناطق الشمالية ، عوضا عن الكثير من الهجر العلمية التي تفردت بها اليمن لتشكل - وعبر مختلف المراحل التاريخية - منارات استقطاب معرفية مجهزة بمختلف السبل والإمكانات العلمية الرئيسة من أساتذة علماء ، ومكتبات ، ومساكن ، وإعاشة ، وغير ذلك مما يحتاجه العالم والمتعلم .

علاوة على ذلك فقد اشتهرت عدد من المساجد في مختلف المدن اليمنية بكينونتها العلمية نتيجة لكثرة علمائها ، وطلابها ، ومكتباتها ،

ومن هذه المساجد ، مسجد الإمام الهادي في صعدة ، ومسجد الجامع الكبير ، والفليحي ، وطلحة وغيرها في صنعاء [٧٧].

وقد ازدهرت مختلف تلك المساجد في عهد دولة الأئمة بحلقات الدرس والمناقشة في مختلف الفنون ، ومنذ القرن العاشر الهجري أطلق على بعضها مسمى مدرسة ، وذلك بعد أن ألحق بها عدد من المنازل للطلاب ، وقُررت لهم الإعاشة ، ومن أبرز تلك المدارس ، ما بناه الإمام شرف الدين المتوفى سنة ٩٦٥هـ/١٥٥٧م في كوكبان ، وثـلا ، وصنعاء ، وذَمار ، وغيرها [٧٨] .

كما حظيت الحركة العلمية بالتنوع الفكري ، والتعايش المنهجي ، وإن كان ذلك لم يخلُ من بعض الهَنَات الناتج عن تسيُّد المنحى التشددي في بعض الفترات التاريخية [٧٩].

واتسمت تلك الحركة كذلك بالشيوع والانتشار بين مختلف الأوساط الاجتماعية ، بحيث لم تقتصر على فئة محددة منها كالسادة ،

(٧٧)عبد الله البردوني ، الثقافة والثورة في اليمن ، (د.م : د.ن ، ١٩٩٢م) ١١٠ ، ١١١ .

(٧٨)إسماعيل الأكوع ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ط٢(بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦م) ٣٦٠ – ٣٩٤ ؛ وبالنسبة للهجر العلمية فيمكن العودة إلى : إسماعيل الأكوع ، هجر العلم ومعاقله في اليمن ، ط١(بيروت ودمشق : دار الفكر المعاصر ودار الفكر ، ١٩٩٥م) خمسة أجزاء .

(٧٩)من ذلك ما حدث بين الإمام عبد الله بن حمزة وفرقة المطرفية ، وكذلك ما حدث للعلامة السيد محمد بن إبراهيم الوزير ، والعلامة السيد محمد بن إسماعيل الأمير ، والعلامة الشيخ صالح المقبلي ، والعلامة السيد الحسن الجلال ، والعلامة القاضي محمد بن علي الشوكاني ، ومعاصره العلامة القاضي يحيى السماوي ، وغيرهم من بعض المضايقات والخصومات العلمية .

وهم المنتمون إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كما يقول بذلك بعض المثقفين اليمنيين بحسب ما سلف القول به .

آليات الحركة الثقافية في العصر الحديث :

المدارس العلمية :

يعتبر الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين (٩١٢ – ٩٦٥هـ/١٥٠٧- ١٥٥٨م) من أبرز الأئمة الذين كانت لجهودهم العلمية الأثر البارز في إنعاش الحركة الثقافية باليمن ، حيث إضافة إلى ما أنتجه من مكنون معرفي تمثل في العديد من المصنفات الدينية والتاريخية والأدبية التي زادت على العشرين مؤلفا [٨٠] ، فقد حرص على تشييد المدارس العلمية ، وتجهيزها بمختلف الوسائل المساعدة من مكتبات ، وأدوات مكتبية ؛ ومن ذلك مدرسة الإمام شرف الدين في كوكبان المستمرة حتى الوقت الراهن ، وقد درّس بها الإمام المؤيد بالله محمد بن إسحاق ابن المهدي أحمد بن الحسن المتوفى سنة ١١٦٧هـ/١٧٥٣م ، وكذلك الأمير العالم عبد القادر بن أحمد بن الناصر شرف الدين المتوفى سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م ، وغيرهم .

ومن ذلك أيضا مدرسة الإمام شرف الدين في مدينة ثلا ، وفي مدينة حجة ، ومدرسته في مدينة صنعاء التي درس بها العديد من العلماء الفضلاء من أمثال البدر المنير العلامة السيد محمد بن إسماعيل

---

(٨٠)الحبشي ، سبق ذكره ، ٦٥٥ – ٦٥٩ ؛ الوجيه ، سبق ذكره ، ١١٣٤ – ١١٣٦ .

الأمير المتوفى سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م ، كما درس بها العلامة القاضي محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ، وكذلك العلامة القاضي أحمد بن محمد الجرافي المتوفى سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م ، والقاضي علي بن حسن سُنهوب المتوفى سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م ، وغيرهم [٨١].

ومنها كذلك ما بناه الإمام شرف الدين في مدينة ذمار وتعرف بالشمسية نسبة إلى ابنه شمس الدين الذي ربما أشرف على عمارتها ، وقد حظيت هذه المدرسة بمكتبتها النفيسة التي تم تدمير جزء كبير منها عندما تعرضت المدينة لنهب شيخ قبيلة وادعة سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م الذي دخل بحميره إلى المدرسة منتهبا فراشها وكتبها [٨٢].

وقد كانت هذه المدرسة وإلى مدة يسيرة " صرحا من صروح العلم ، فقد كانت (حسب قول القاضي الأكوع) أشبه ما تكون بخلية النحل لكثرة طلبة العلم الدارسين بها .. من شتى المناطق" ، وأضاف لقد " كان طلاب العلم الوافدون إلى ذمار المعروفون بالمهاجرين يقيمون في المنازل (جمع منزلة) الملحقة بالمدرسة الشمسية ، والمحيطة بها من جميع جهاتها ، وكان بعض هذه المنازل معروفة بأسماء أسر تتوارث الإقامة بها خلفا عن سلف لطلب العلم ، فقد كان لبيت الشامي ، وبيت

---

(٨١)الأكوع ، المدار الإسلامية ، مرجع سابق ، ٣٦٠ – ٣٧٠ .

(٨٢)الأكوع ، المدارس الإسلامية ، مرجع سابق ، ٣٧١ .

الأشول من خبان ، وبيت الشبيبي من آنس ، وبيت الجرموزي من عتمة وغيرهم ، منازل معروفة بهم" [٨٣].

ومن أشهر من درّس بها العلامة الفقيه إبراهيم بن يوسف حَثيث المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م ، والفقيه العالم صلاح بن علي المداني الملقب بالشويطر المتوفى سنة ١٠٦٤هـ/١٦٥٣م ، والعديد من فقهاء آل الشبيبي ومنهم : الفقيه العالم القاضي مهدي بن علي الشبيبي المتوفى سنة ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، والعديد من فقهاء آل العنسي ومنهم : الفقيه العالم القاضي سعيد بن عبد الله العنسي المتوفى سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٣م، والفقيه العالم القاضي محمد بن عبد الله العنسي المتوفى سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م ، والعديد من فقهاء آل الشماحي ومنهم: القاضي العلامة عبد الله بن أحمد الشماحي المتوفى ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ، والقاضي عبد الوهاب بن محمد الشماحي المتوفى سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م ، والسيد العلامة علي بن حسن الديلمي المتوفى سنة ١٣٣٠هـ/١٩١١م ، والسيد العلامة عبد الله بن محمد السوسوة ، وغيرهم الكثير [٨٤] ؛ كما أنشأ المطهر بن الإمام شرف الدين مدرسة علمية بعدن سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م .

(٨٣)المرجع السابق ، ٣٧١ .
(٨٤) المرجع السابق ، ٣٧٣ – ٣٩٣ .

واستمر الاهتمام بالحركة العلمية في عهد الأئمة من بعدهم ، وبخاصة في فترات الاستقرار السياسي والعسكري في اليمن ، ومن ذلك ما كان على عهد الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم (١٠٢٩ – ١٠٥٤هـ/١٦١٩ – ١٦٤٤م) الذي انتشرت في عهده المدارس ودور العلم ، ونبغ في عهده العديد من العلماء الفطاحل من أمثال العلامة السيد مطهر الجرموزي وغيره [٨٥] ؛ وما كان كذلك على عهد أخيه الإمام المتوكل على الله إسماعيل (١٠٥٤ – ١٠٨٧هـ/١٦٤٤ – ١٦٧٦م) الذي اهتم باقتناء الكتب العلمية ، وقرب العلماء منه ، واستضاف العديد من علماء العالم الإسلامي سواء من مصر أو الحجاز والعراق وخراسان والهند [٨٦] .

وفي عهد الإمام يحيى حميد الدين (مؤسس المملكة الحديثة باليمن) تأسست المدرسة العلمية (دار العلوم) سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م بصنعاء ، والتي خصص لها أوقاف التُّرَب ، وأوقاف المساجد الخالية والمندرسة ، وكل وقف انقطع مصرفه وجُهلَ واقفه ، وقد بلغ متوسط حاصلاتها المالية في السنة قرابة ٥٠٠ ألف ريال فرانصي ، فكان يصرف منها على رواتب الأساتذة العلماء ، ونفقات الطلاب الذين بلغ

(٨٥)حياة البسام ، الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في اليمن ، ط١(جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٦م) ٢٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٨٦)سلوى الغالبي ، الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم ودوره في توحيد اليمن ، ط١(د.م : د.ن ، ١٩٩١م) ٥٣

عددهم قرابة ٧٠٠ طالب في السنة ، وما فاض يتم شراء ووقف بعض الأموال لها [٨٧].

وتتكون المدرسة العلمية من ثلاثة صفوف ، كل منها ينقسم إلى أربع شُعب بأربع سنوات ، وبناء على ذلك فيحتاج الطالب ليتخرج من المدرسة إلى ١٢ سنة دراسية ؛ ويطلق على الشعبة الثالثة في الصف الثالث مسمى شعبة "المنهاج" على اسم كتاب في أصول الفقه شرح على كتاب المعيار للإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى ، في حين تسمى الشعبة الرابعة منه بشعبة الاجتهاد أو شعبة الغاية نسبة لكتاب "الغاية وشرحها في أصول الفقه" للعلامة السيد الحسين بن الإمام القاسم بن محمد .

وتتراوح مخصصات الأساتذة العلماء من ثلاثة ريالات إلى الخمسين ريالا في الشهر ، كما تولى إدارة المدرسة عدد من العلماء منهم القاضي عبدالواسع الواسعي ، والسيد عبد الخالق الأمير ، والقاضي عبد الرحمن السياغي ، وغيرهم ، وكان من مشائخها العلامة القاضي علي بن علي اليدومي ، والسيد زيد الديلمي ، والسيد أحمد بن عبد الله الكبسي ، والقاضي المؤرخ عبد الواسع الواسعي ، والقاضي يحيى بن محمد الإرياني ، وغيرهم [٨٨].

---

(٨٧)الأكوع ، المدارس الإسلامية ، سبق ذكره ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ .
(٨٨)المرجع السابق ، ٤٠٠ – ٤٣٤ ، البردوني ، مرجع سابق ، ٤١٧ – ٤٢٤ .

كما أنشأت في عهده أيضا المدرسة العلمية بثلا سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م ، وافتتح في نفس السنة مدرسة علمية في تعز ، وأخرى في زبيد ، علاوة على افتتاح سبعة عشر مدرسة تحضيرية (ابتدائية) في منطقة تهامة.

وكانت الحكومة اليمنية قد أنشأت في سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م نظارة المعارف التي ما لبثت أن تطورت إلى وزارة مستقلة سنة١٣٥٠هـ/١٩٣١م تحت إشراف الأمير عبد الله بن الإمام يحيى حميد الدين ، الذي قام بتعيين ألمع خريجي المدرسة العلمية كمفتشين ومديري مدارس ، كما شكل مجلسا لتطوير المناهج مؤلفا من السيد أحمد الوريث ، والسيد أحمد المطاع ، والقاضي عبد الله العزب ، والقاضي علي عبد الوهاب الشماحي ، الذين اقترحوا تقسيم التعليم إلى ثلاثة مراحل (ابتدائي ومتوسط وثانوي) غير أن اقتراحهم ذلك قد جوبه بالرفض من قبل الإمام يحيى بالرغم من موافقة ولده وزير المعارف في حينه [٨٩] .

المكتبات العلمية :

تمثل المكتبة بما تعكسه من رمز معرفي مثلا واضحا لمدى انتشار المعرفة بوعيها الثقافي بين أرجاء المجتمع ، ولا شك فقد كان ذلك مما تميزت به الحضارة الإسلامية إبان ازدهارها .

---

(٨٩)البردوني ، مرجع سابق ، ١١٤ .

وفي اليمن كان للمكتبة شأن عظيم ، حيث اهتم كثير من العلماء ، وكثير من الأسر العلمية بتأسيس مكتباتهم الخاصة التي أصبح يشار إليها بالبنان في الوقت الراهن ، بالرغم من تسرب كثير من المخطوطات العلمية اليمنية إلى مكتبات العالم العالمية ، كمكتبة الإمبروزيانا بإيطاليا التي تضم نحو سبعة آلاف مخطوط يمني ، عوضا عما هو موجود في مكتبات برلين ، وفينا ، وباريس ، ومدريد ، وليدن ، وهولندا ، ومكتبة المتحف البريطاني وغيرها [٩٠].

ومن أشهر المكتبات الخاصة باليمن مكتبة آل الهاشمي بصعدة ، ومكتبة آل شرف الدين بشبام وكوكبان، ومكتبة آل الوزير بالسر ، ومكتبة بيت الأهدل بزبيد ، وغيرها .

تجدر الإشارة إلى أن عدد ما فهرس له السيد عبد السلام الوجيه في الجزء الأول من مشرعه في فهرسة المكتبات الخاصة قد بلغ قرابة ٣٩ مكتبة ، حوت (٣١٩٠) مجلدا ، منها حوالي (١٨٦٠) مخطوطا أصلي ، وقرابة (١٣٣٠) مخطوطا مصور [٩١] ؛ ومجموع ما فهرسه السيد عبد الله الحبشي في كتابه "فهرس مخطوطات بعض المكتبات الخاصة في اليمن" الصادر سنة ١٩٩٤م حوالي (٩٥٩) مخطوطا ؛ هذا

(٩٠)عبد السلام الوجيه ، مصادر التراث في المكتبات الخاصة في اليمن ، ط١(عمّان : مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، ٢٠٠٢م) ج١ ، ١٦ ؛ وانظر : الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، مرجع سابق ؛ العمري ، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني ، مرجع سابق .
(٩١)الوجيه ، مصادر التراث ، المرجع السابق ، ٢٧ .

عوضا عما تحويه المكتبات العامة مثل مكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم ، ودار المخطوطات بصنعاء ، والمكتبة الشرقية والغربية بالجامع الكبير بصنعاء .

وتعتبر الأخيرة من أهم ما أنشأه الإمام يحيى في حقل المعرفة والعلم لكونها قد لملمت شتات المخطوطات المهدورة من المساجد ، وحمتها من العبث والضياع ، حيث قام بجمع تلك المجموعات وضمها مع مجموعته الخاصة مكونا بها النواة الأولى لما يعرف بمكتبة الجامع والتي تأسست سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م ، وقد تم تعيين القاضي حسين الواسعي كأول أمين لها ، ويساعده في ذلك القاضي محمد أحمد الحجري .

وقد ضمت المكتبة الكثير من الكتب الأدبية والثقافية المطبوعة التي كانت تهديها دور الطباعة للإمام وولده وزير المعارف ، حيث يقوم الإمام بإيداع كل كتاب يفرغ من قراءته في المكتبة [٩٢] .

وبهدف المحافظة على مختلف تلك المخطوطات والكتب فقد تم تصنيف المكتبة وفق منهج خاص ، حيث قسمت إلى ٢٦ فرعا معرفيا رئيسيا ، قسم كل منها وفق القوائم الأبجدية إلى عدة أقسام فرعية ، وتم فهرستها في كروت محتوية : على اسم المؤلّف ، وعنوان المؤلَّف ، وتأريخ التأليف ، ووصف نوع الخط المستخدم في النص المنسوخ أو

(٩٢)سبقت الإشارة إلى أسماء بعض تلك الكتب الحديثة ، أنظر : البردوني مرجع سابق ، ٤٤١ .

المطبوع ، وبيان حجم المجلد بالسنتيمتر،علاوة على اسم الواقف للكتاب[٩٣].

وفي سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م أصدر الإمام لائحة تنظيمية تحدد قواعد دخول المكتبة ، ونظام الاستعارة منها ، وتشمل هذه اللوائح على:

- منع دخول الكتب الخاصة إلى المكتبة مع أي شخص كائنا من كان
- منع الكتابة أو التعليق على أي كتاب مستعار حتى ولو كان ذلك بهدف التصحيح ، وإن تحتم التصحيح فلا يكون إلا بعد أخذ الإذن من أمين المكتبة .
- منع إخراج أي كتاب من المكتبة بهدف المطالعة في المسجد الجامع إلا بعد دفع تأمين مالي
- منع تبادل الأحاديث الجانبية في المكتبة بأي شكل من الأشكال .
- منع الإعارة لأي شخص غير مؤهل لذلك .
- منع إعارة المخطوطات الأصلية النادرة ، وذلك بحسب مرسوم سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م [٩٤] .

نشأة وتطور الطباعة في اليمن :

ولا شك فإن الحديث عن المكتبات سيقودنا حتما للحديث عن نشأة وتطور الطباعة في اليمن باعتبارها أداة هامة في توسيع دائرة الثقافي

(٩٣)برينكلي ميسك ، الثقافة المطبوعة في اليمن "رؤية أنثروبولوجية" ، في مجلة البحرين الثقافية (المجلد ٩ ، العدد ٣٢، ٢٠٠٢م) ١٧٠ ، ١٧١ .
(٩٤)المرجع السابق ، ١٧١ ، ١٧٢ .

في المجتمع لتشمل مختلف الطبقات الاجتماعية بشكل أوسع ، غير أنه وبالرغم من أن العالم قد عرف الطباعة منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي إلا أن العرب لم يعرفوا ذلك إلا في وقت متأخر (١١٣٩هـ/١٧٢٧م) نتيجة لرفض الدولة العثمانية السماح بالطباعة العربية بحجج دينية [٩٥] ، ومن ذلك التاريخ بدأت المطبعة في الانتشار في ربوع العالم العربي ابتداءً بالشام ومصر ، أما اليمن وبخاصة صنعاء فلم تعرف ظهور المطبعة فيها إلا في سنة ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م[٩٦] ، وكان من أوائل ما طبعه العثمانيون فيها نشرة السالناما ، كما تم طبع عدد من الأعمال العلمية بعد ذلك فيها مثل : كتاب "الكافل" في الفقه للعلامة القاضي محمد بن يحيى بهران ، وكتاب "الغاية" في الأصول ، للعلامة الحسين بن القاسم ، وآخر في التفسير للعلامة السيد محمد بن الحسين بن القاسم [٩٧] ؛ على أن اليمن كانت قبل ذلك قد عرفت الكتب المطبوعة ، حيث لاحظ كارستن نيبور خلال تجواله سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٣م وجود عدد من الأعمال المطبوعة باللغة العربية ،

(٩٥)سهيل صابان ، إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبوعاتها ، مراجعة : عباس طاشكندي (الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية السلسلة الثانية (٢٣) ، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م) ٢٥
(٩٦)يحيى محمود بن جنيد ، الطباعة في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي ١٢٩٧ ــ ١٣١٧هـ ، ط١(الرياض : دار أجا ، ١٩٩٨م) ٢١ .
(٩٧)ميسك ، مرجع سابق ، ١٦٦ (حاشية) ، الأكوع ، المدارس الإسلامية ، سبق ذكره ، ٢٨٨ ، ٢٨٩

والتي لم تلق استحسانا من قبل المثقفين لفصل حروفها عن بعضها البعض حال الطباعة حسب رأيه [٩٨].

وفي هذا الإطار فقد اهتمت المؤسسات الأهلية الفردية والجماعية، وكذلك المؤسسة الحكومية بطبع عدد من الكتب خارج اليمن مثل كتاب "سبل السلام" لابن الأمير الصنعاني الذي تمت طباعته في مدينة دهلي (دلهي) الهندية سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م ، وكتاب متن "الأزهار" للإمام المهدي أحمد بن يحيى سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م ، وأعيد طبعه مع شرحه للقاضي ابن مفتاح سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م ، وكتاب "نيل الأوطار" للعلامة الشوكاني الذي طبع في القاهرة سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م ، وفي سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م تمت طباعة العديد من الكتب منها : كتاب "البدر الطالع" للشوكاني ، وتراجم السيد محمد زبارة ، وكتاب "الروض النظير" للقاضي الحسين السياغي ، وكتاب "البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار" للإمام المهدي أحمد بن يحيى [٩٩].

كما تم طبع وإصدار صحيفة "الإيمان" سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م ، لتكون أول صحيفة يمنية تعبر عن حال الدولة ، وتعكس توجهها بشكل عام ، وهي في ذلك شبيهة بصحيفة "الوقائع المصرية" التي صدرت في

(٩٨)ميسك ، المرجع السابق ، ١٦٤ .
(٩٩)المرجع السابق ، ١٨٠ .

عهد محمد علي باشا سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م ، وقد تطورت الصحيفة التي رأس تحريرها كل من القاضي عبد الكريم مطهر ، ومن ثم السيد عبد الكريم الأمير ، لتصبح جريدة يومية بعد أن كانت في بداياتها شهرية ، وكانت توفر عرضا تاريخيا مسلسلا للأحداث السياسية الرئيسة والفرعية ، الداخلية منها والخارجية حتى توقفها الأول سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ، كما تم إصدار مجلة الحكمة الشهرية برئاسة السيد أحمد الوريث في الفترة ذاتها لتعبر عن حال الثقافة والمثقفين [١٠٠].

المجالس الثقافية :

واهتمت دولة الأئمة إجمالا بتفعيل المجالس الثقافية حيث تميز عهد الإمام شرف الدين بداية بتعدد المجالس العلمية ، ومن ذلك ما ذكره مؤلف كتاب مكنون السر القاضي العلامة محمد بن يحيى المقراني المعاصر للإمام شرف الدين ، من أنه أخذ في قراءة كتابه "الوابل المغزار المطعم لأثمار الأزهار" وهو شرح كتاب "الأثمار" للإمام شرف الدين بحضور نخبة من العلماء المصاحبين للإمام من أمثال : الفقيه يحيى بن محمد بن حَرمل المتوفى سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م بوباء الطاعون ، والسيد أحمد ابن الإمام عز الدين بن الحسن المتوفى بوباء

(١٠٠)ميسك ، مرجع سابق ، ١٦٨ ؛ البردوني ، مرجع سابق ، ١١٢، ١١٧، ١١٨ ، ١٣١ ؛ كما يمكن مراجعة بحث أوبرماير فيما يتعلق بتطور جريدة الإيمان وطبيعة موضوعاتها المنشورة : جيرالد أوبرماير ، جريدة الإيمان والإمام يحيى : العقيدة والدولة في اليمن (١٩٠٠ – ١٩٤٨م) ، في الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠ – ١٩٣٩م ، مجموعة مؤلفين ، ط١(بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٣م) ١٩٧ – ٢١١ .

الطاعون في السنة نفسها ، والقاضي محمد بن يحيى بهران المتوفى سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م ، والقاضي علي بن أحمد حابس ، وغيرهم [١٠١].

كما أشار المقراني في كتابه الآنف الذكر أيضا إلى أن السيد العلامة علي بن الإمام شرف الدين قد أحال حصن ذي مرمر الواقع في الشمال الشرقي من مدينة صنعاء إلى مركز علمي رائد ، بجمعه لكثير من مشائخ العلم في جميع الفنون ، ووصلهم بالعطايا المحفزة ، وفي حينه قام بالرواية لهم ، والرواية عنهم ، واستجاز وأجاز في جميع العلوم ومن كثير من العلماء ، مما أدى إلى تفاعل منهج النقاش في جميع أنواع العلوم ، وازدهار حركة التأليف واقتناء الكتب ، بحيث تكونت بالحصن مكتبة واسعة الأجناس المعرفية [١٠٢] .

تجدر الإشارة إلى أن عقد مثل هذه المجالس العلمية والأدبية لم يكن حكرا على عهد دون آخر ، بل كانت ديدن مختلف تلك العهود ، لكون الأئمة أولا على درجة عالية من العلم المعرفي ، مما حفزهم لعقد مثل هذه المدارسات للإفادة والاستفادة ؛ ومن ذلك ما كان على عهد الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم الذي ضم مجلسه إضافة إلى علماء الزيدية علماء الشافعية والمالكية ؛ وما كان كذلك على عهد أخيه الإمام المتوكل على الله إسماعيل الذي قرب العلماء منه ، وعمل على

(١٠١)المقراني ، مصدر سابق ، ٩٣ .
(١٠٢)المصدر السابق ، ١٤٥ ، ١٥٠ .

استقطاب بعض منهم من أمثال الطبيب الفارسي محمد بن صالح الجيلاني الذائع الصيت في وقته [١٠٣]، كما حرص على عقد المجالس العلمية معهم من جانب ، وبينهم وبين العلماء الزيديين من جانب آخر ، ومن ذلك ما حدث من حوار بين العالم الحنفي الشيخ جعفر الواعظ والعالم الزيدي القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال حول مسألة الرجاء والشفاعة [١٠٤] .

على أن هذه المجالس لم تكن مقصورة على أوقات الدعة والسلم، بل كانت صفة لازمة للأئمة والعلماء في كل وقت وحين ، ومن ذلك ما أورده المؤرخ محمد زبارة في حوادث سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م من رسالة العلامة القاضي محمد بن عبد الملك الآنسي الشعرية إلى العلماء والأدباء المتضمنة السؤال في تفضيل رؤية الزهر على الخضرة أو العكس ، معللا ذلك بقوله:

> **".. حررت سؤالا أدبيا لقصد مفاكهة الإخوان ، ورياضة الأذهان ، ليعلم الجهول حين يقف على الجواب أن في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا ، وأن محل الأدب قشيب ، وغصن روضه رطيب"**

وقد تفاعل مع قصيدته عدد من العلماء والأدباء منهم : القاضي العلامة أحمد الجنداري ، والفقيه أحمد رزق السياني ، والسيد محمد بن

(١٠٣)المرجع السابق ، ١٥٢ .
(١٠٤)المرجع نفسه ، ١٥١ .

إسماعيل الكبسي ، والإمام المنصور بالله محمد بن يحيى ، وولده الإمام يحيى وغيرهم (١٠٥) .

كما لم تكن حكرا على الأئمة وحسب ، ولم تكن مقصورة على الجوانب الشرعية فقط كما مر آنفا ، بل كانت صفة لازمة لمختلف المدن العلمية البارزة كزبيد ، وتعز ، وتريم ، وكوكبان ، وصعدة وغيرها ، وللكثير من البيوتات العلمية المشهورة ، وشملت أبعادها المجالات الأدبية المتنوعة ، ومن أبرز هذه المجالس الأهلية ، إن جاز القول ، مجلس الأديب السيد علي بن حسن الحوثي المتوفى سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م الذي خصص غرفة عالية في منزله أسماها "سمرقند" ليجتمع فيها مع الأدباء ، وليتجاذب معهم عذب القصائد ، والتي جمعها بعدئذ في كتاب أسماه "عصارة القند ونفحة الورد فيما قيل في سمرقند" (١٠٦) ؛ ومنها أيضا مجلس الأديب العلامة القاضي يحيى مطهر المتوفى سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥١ م ، وغيرها .

كما تجاوزت حالة هذه المدارسات الأدبية والثقافية أفنية الدور ومقاعدها لتحلق في مدارات الأسواق والحوانيت كما هو الحال في حانوت الأديب إبراهيم بن أحمد اليافعي (١٠٧) ، ولتتنقل بمواضيعها

---

(١٠٥)محمد محمد زبارة ، أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر الهجري ووفيات أعلام أعوامهم إلى سنة ١٣٧٥هـ ، [د.م] : الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٤م) ١٢٤ – ١٣٤ .

(١٠٦)عبد الله الحبشي ، الأدب اليمني عصر خروج الأتراك الأول من اليمن ١٠٤٥ – ١٢٨٩هـ ، ط١(صنعاء : الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٦م) ١٢٧ .

(١٠٧)الحبشي ، الأدب اليمني ، مرجع سابق ، ١٣٠ .

ومباحثها في مختلف المجالس الثنائية وما زاد عنها ، بالصورة التي أصبحت تمثل سمة من سمات المجتمع الثقافي اليمني بمختلف صوره الدينية والأدبية ، وفئاته الاجتماعية والاقتصادية (١٠٨) ؛ ولتخوض في الكثير من الجوانب السياسية والاقتصادية ، كالسجال الأدبي الذي احتدم بين أدباء اليمن إبان الحرب العالمية الثانية كما وضح ذلك من رسالة الأديب الشاعر القاضي محمد محمود الزبيري لصديقه القاضي محمد عبد الله العمري ، عوضا عن السجال المحتدم حول الجوانب الفنية المتعلقة بالمقارنة بين الشعر والنثر والتي كانت تدور رحاها في مجلس الأمير أحمد حميد الدين بتعز (١٠٩).

وهكذا فقد اهتمت دولة الأئمة في اليمن بتطوير وتنمية الحركة الثقافية التي تعبر عن هويتها بدءا ، وتعكس إجمالا حالة التطور الفكري الضارب بجذوره إلى فترات زمنية بعيدة ، والممتد بإشعاعه إلى أفاق كونية واسعة . والله الموفق .

كتبه الفقير إلى الله

السيد زيد بن علي الفضيل
شرف الدين

---

(١٠٨)المرجع السابق ، ١٣٥ .

(١٠٩)حسين العمري ، يمانيات في التاريخ والثقافة والسياسة الجزء الثاني ، ط١(دمشق : دار الفكر ، ٢٠٠٠م) ٣٦ ، ٣٨ ؛ البردوني ، مرجع سابق ، ١١٣ .